أهل البيت عليهم السلام

في الحياة الإِسلامية

الإِمامة (القسم الاوَل: النظرية)

تأليف
آية الله السيد محمد باقر الحكيم

فهرس المطالب

- المدخل
- موضوع البحث
- تقسيم البحث
- نظرية الإمامة
- الأهداف والأنوار
- المواقف
- الفصل الأول . ضرورة الإمامة
- الإمامة والاختلاف في العبادة
- الإمامة والاختلاف في التأويل
- الإمامة والولاية
- العصمة والإمام المهدي
- الفصل الثاني . الإمامة في أهل البيت عليهم السلام
- التكويم والتشويف
- الإمامة في الذرية سنة

حكمة الإمامة في الذرية

- البعد الغيبي
- البعد التاريخي
- الجذر التاريخي ودوره
- البعد الرسالي
- الإعداد والواقع التاريخي
- الإعداد والنظام العام
- البعد الاجتماعي
- خلفيات البعد الاجتماعي
- الإسلام والعلاقات العشائرية
- الفصل الثالث . الإئمة الاثنا عشر
- أدلة العدد المحدود
- تفسير العدد المحدود
- التفسير الغيبي للظاهرة
- التفسير التاريخي للظاهرة
- منهج البحث التاريخي للإعداد

- الأَهداف الرسالية الثلاث
- دراسة حركة الرسالة
- موازنة حركة الهداية والسلطة
- القيادة غير المعصومة
- مشاكل الدولة وتراجعها
- الإِستنتاج

المدخل

المناسبة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، والصلاة والسلام على أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا بقية الله في أرضه (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والسلام على شهداء الإسلام في كل مكان منذ الصدر الاول للاسلام وحتى شهداء هذا العصر.

في البداية أتقدم بالتعازي الحارة، لمناسبة ذكرى شهادة سيدنا ومولانا أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حيث صادفت هذه الذكرى يوم أمس ونحن وإن كنا ننتمي إلى الإسلام والى النبي وأهل بيته الكرام بصورة عامة ولكننا ننتمي إلى هذا الإمام الهمام الذي كان له دور عظيم في حياتنا وحياة المسلمين عموماً، فإن الامام

الصادق عليه السلام واتته ظروف خاصة مكنته من القيام بعمل عظيم على مستوى العالم الإسلامي وعلى مستوى بناء الجماعة الصالحة المتمثلة بأتباع أهل البيت عليهم السلام، حيث كان الإمام الصادق عليه السلام الامام الثالث من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين طال بهم عهد الإمامة نسبياً وكان أطول أئمة أهل البيت عليهم السلام عمراً، باستثناء سيدنا ومولانا الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وقد قام الإمام الصادق عليه السلام باعتبار هذه الخصوصيات من ناحية، والظروف السياسية المحيطة به من ناحية أخرى، وهي ضعف الدولة الاَموية وبداية تأسيس الدولة العباسية، كل هذه الظروف وما يشبهها هيأت له فرص نادرة تمكن فيها الامام عليه السلام من أن يديم حركة الائمة عليهم السلام في الدفاع عن الإسلام والقيام بواجبات الإمامة تجاه الامَة الاسلامية، وبصورة خاصة تأسيس وبناء الحوزات العلمية، وتوسيع نشاطها في العالم الاسلامي، حتى أصبح الإمام الصادق عليه السلام عنواناً لها . أيضاً .والاستاذ الذي تربت عليه المدارس الاسلامية، وأخذ منه مختلف علماء الإسلام وعلى مختلف مذاهبهم.

الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حديث واسع، ونحن نعيش هذه الايَام ذكرى شهادته، ولذلك أحاول أن أبدأ بموضوع مهم بمناسبة هذه الذكرى، يرتبط بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الموضوع وهو بحث

دور (أهل البيت في الحياة الإسلامية) بصورة عامة، ولازال ذلك أمنية في نفسي أن أوفق لتناوله بصورة واسعة نسبياً، ولكن (ما لايدرك كله لا يترك كله) و(لا يترك الميسور بالمعسور)، وقد يتيسر لنا الحديث هنا بصورة عامة ومحدودة حول هذا الموضوع.

ومن هذا المنطلق سوف أشير إلى عدة أبعاد، وأحاول في هذا المجلس الشريف أن أتناول هذه الأبعاد حول أهل البيت عليهم السلام، لأن هذا المجلس الشريف .وببركة أنفاس الشهداء والعلماء وأرواحهم الطاهرة، وإخلاص الاخوة الاعزاء الذين لا زالوا يتفضلون علينا بالحضور في هذا المجلس والمشاركة فيه . أصبح مجلساً ثقافياً مهيئا لتناول مثل هذه الموضوعات الفكرية والعقائدية.

وسوف أكتفي فيه هذه الليلة بذكر موضوع البحث وبعض خصائصه على أن نبدأ إذا وفقنا الله تعالى في تناول هذا البحث في الليالي الآتية، كلما سنحت الفرصة لذلك.

موضوع البحث

أهل البيت عليهم السلام كما نعرف كان دورهم الأساس هو الإمامة وامتدادا للرسالة الالهية الخاتمة التي جسدت التكامل في وحدة النبوة والإمامة، وكان وجودهم تعبيراً عن امتداد هذه الرسالة في خط الامامة، هذا هو العنوان العام في دور أهل البيت عليهم السلام، ولكن هذا العنوان العام قد يعتريه شيء من الغموض، مما نحتاج فيه إلى هذا البحث، وهذا الغموض هو أن المتبادر إلى الأذهان دائماً أن الامامة هي: عبارة عن (الخلافة) المتمثلة ولاية الامرَ وقيادة التجربة الاسلامية والحكم الإسلامي، ومن ثم فقد يأتي هذا السؤال إذا كانت الامامة هي عبارة عن الخلافة والولاية والحكم، فأهل البيت عليهم السلام قد حرموا من هذه الخلافة كما نعرف، باستثناء فترات محدودة وقصيرة جداً في التاريخ الإسلامي، وهي فترة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الإمام الحسن عليه السلام وهي مدة قصيرة جداً، وإن كنا ننتظر الخلافة المطلقة لهم التي يقوم بأعبائها إمامنا وسيدنا الحجة بن الحسن (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وبإستثناء ذلك فأن هذه القرون العديدة التي مضت في تاريخ الإسلام وهي حوالي أربعة عشر قرناً من الزمن، وما يمكن أن نفترض من قرون أخرى تأتي حتى يظهر سيدنا الامام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ويتولى أهل البيت عليهم السلام هذا الدور، لم يتسلم أهل البيت (الخلافة)، فهل أن ذلك

كان تعطيلاً لدورهم في الحياة الإسلامية طيلة هذه المدة الطويلة، حتى يظهر أمرهم في المستقبل؟! أو أن الامامة ودور أهل البيت عليهم السلام هو أوسع وأشمل من قضية تولي الحكم وإدارة هذا الحكم، وأن تولي إدارة الحكم هو أحد الأدوار والأبعاد في دورهم عليهم السلام الواسع في حياة الإسلام والمسلمين؟ هذا هو السؤال الذي يشرح العنوان.

ونحن نحاول في هذا البحث أن نبين الأبعاد والأدوار الواقعية المتعددة لأهل البيت عليهم السلام في الحياة الاسلامية العامة، مضافاً إلى دور الخلافة وقيادة التجربة الإسلامية وولاية الامرَ.

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن هذا الموضوع هو من الأبحاث التي يمكن أن يكتب الباحثون فيها موسوعة كاملة، نسميها بـ (موسوعة أهل البيت عليهم السلام)، ولدي أمل أن أكتب ذلك، إلا أن هذا البحث بالخصوص إنما هو في إطار التخطيط

النظري له، والأمل المستقبلي أن أكتب عدة كتب، كل كتاب قد يشتمل على عدة اجزاء، لبيان هذه الأدوار، وأحد النماذج لهذه الكتب هو كتاب (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) الذي يعبر عن دور واحد من هذه الأدوار، وقد وضعت الأطار النظري والتخطيطي لإنجازها، كما

الصفحة 8

أشرت إلى بعض موضوعاتها في هوامش الكتاب المذكور، ولكن لا أعرف هل أن الوقت يساعدني على ذلك، ولاسيما مع ظروفي الخاصة، أو هل أن الأجل الذي ننتظره دائماً يسمح لنا بذلك كي أتمكن أن أقوم بهذه المهمة أو لا؟

وقد طرح عليَّ بعض الاخوة الاعزاء من وسطين مختلفين، أحدهما من وسط الحوزة العلمية، والآخر من وسط الجامعة، أن أقوم بشرح أفكاره على مستوى الفهرست والمنهج العام لهذا الموضوع، من خلال مجموعة من المحاضرات، لتشكل الإطار العام لهذا البحث، وإذا هيأ الله تعالى لنا الفرصة لكتابته تفصيلاً، فنعما هو، وإلا فلعله يوجد في الكثير من الاعزاء من الكتاب والباحثين والعلماء من تتهيأ له هذه الفرصة، إذا رأى في هذا البحث فائدة ومنفعة، وإني أعتقد أن فيه فائدة ومنفعة كبيرة جداً، ولاسيما في عصرنا الحاضر، الذي أصبح فيه مذهب أهل البيت عليهم السلام من الأسماء البارزة التي يتطلع لها المسلمون من ناحية، والبشرية جمعاء من ناحية أخرى، ولاسيما بعد هذه المسيرة العظيمة المعطاء، مسيرة الشهداء والتضحيات، وقيام الدولة الإسلامية في هذا البلد الكريم إيران (بلد أهل البيت) على يد علماء الإسلام وعلى يد العالم الرباني الامام الخميني قدس سره،

الصفحة 9

بحيث أصبح اسم أهل البيت عليهم السلام ومدرستهم والقواعد العلمية لهذه المدرسة المتمثلة بالحوزات العلمية رمزاً من رموز هذا العصر، ومعْلَماً من معالمه، بسبب هذا التحول الكبير الذي تحقق في الاوضاع الاجتماعية والسياسية لهذه المدرسة ولهذا الخط الشريف.

ولا أريد في هذا الحديث أن أدعي أنني سوف أتي بشيء جديد مهم في المضمون، فقد يكون الكثير من المضامين والموضوعات التي سوف نتناولها بالبحث، من الموضوعات التي تناولها الباحثون في كتبهم وأبحاثهم، على أني لا أعلم ذلك لأني . بسبب ضيق الوقت . لم أوفق إلى مراجعة البحوث ذات العلاقة بهذا الموضوع إلا بشكل محدود جداً، ومن ذلك بعض بحوث الشهيد الصدر، أو ما تبقى لدي من مخزون في الذاكرة للمصادر الأصلية (القرآن الكريم والحديث الشريف [1] ولكن الجديد هو أن تنظيم هذه الأبحاث وترتيبها ومنهجيتها وتكميلها وتطويرها في بعض الموارد هو الشيء الجديد وهو شيء مهم الذي نحتاجه في هذه المرحلة.

(1) وقد أعانني في تخريج النصوص من مصادرها الأصلية ولدي العزيز الفاضل السيد محمد صادق الحكيم.

الصفحة 10

تقسيم البحث

ونبدأ هذا البحث أولاً: بتمهيد يتركب من خطين رئيسين، لابد من الحديث فيهما قبل الشروع في أصل الموضوع:

أولا: الحديث عن النظرية الإسلامية في موقع أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية، وهذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي لابد أن نتناولها في التمهيد من أجل الدخول في هذا البحث.

ثانياً: هو تشخيص الأهداف والأنوار العامة لأهل البيت على المستوى النظري مع الاشارة إلى أدلة هذه الأهداف والأنوار من الكتاب الكريم والسنة التي وردتنا من النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام.

نظرية الإمامة

أما فيما يتعلق بالأمر الأول وهو بيان (النظرية)، يلاحظ بأن الرسالات الإلهية السابقة كانت تعتمد في إدامتها واستمرارها وبقائها على مجموعة من الأنبياء الذين يأتون بعد كل نبي من الأنبياء أولي العزم، يتحملون مسؤولية هذه الرسالة على مستوى التطبيق والتنفيذ والتفسير، ولكن الرسالة الخاتمة التي هي أعظم هذه الرسالات

وأفضلها، وأراد الله لها الإستمرار والبقاء إلى آخر الحياة البشرية، يلاحظ فيها أنها رسالة لا يوجد فيها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لما نص عليه القرآن من قوله تعالى **(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...)**[1] وكذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وتواتر عنه صلى الله عليه وآله لدى المسلمين من قوله لعليٍّ عليه السلام: (... أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي)[2].

إذن، فهذه الرسالة . من ناحية . هي أعظم الرسالات الإلهية، وراد لها الإستمرار والدوام أكثر مما راد للرسالات الإلهية الأخرى، ولكن من ناحية أخرى نجد أن هذه الرسالة لم توضع لها ضمانات للإستمرار والبقاء من خلال إرسال الأنبياء التابعين، كما وضعت ضمانات للرسالات السابقة التي جاء بها الأنبياء أولي العزم، حيث أن هؤلاء الأنبياء التابعين كانوا يقومون بمهمة إدامة زخم تلك الرسالة ومتابعة الإشراف على تطبيقها ودعوة الناس إليها، لأن عمر الرسول

(1) الأحزاب: 40.

(2) البحار 21:208، حديث 1 ، مستدرك الحاكم 3:109 ، صحيح البخاري 3:58 ، راجع كتاب المراجعات: 119 ، مراجعة رقم 28، وقد ذكر فيه مصادر علماء المسلمين.

. بصورة عادية . يبقى محدوداً بالنسبة إلى عمر الرسالة نفسها، ولا يستمر عمره . عادة . باستمرار الرسالة نفسها، ولذلك كان الله تعالى يرسل الأنبياء التابعين من أجل أن يديموا حركة الرسالة ومسيرتها.

هذا السؤال هو الذي يفرض الحديث عن قضية ضرورة وجود الإمامة، وموقع ودور أئمة أهل البيت عليهم السلام من الرسالة الخاتمة، حيث شاء الله تعالى أن يكون استمرار الرسالة الخاتمة عن طريق نظرية (الامامة)، وأن تكون هذه الإمامة

في أهل البيت سلام الله عليهم.

وهذا الموضوع وإن كان يحتاج إلى بحث وشوح واسع، وسوف أشير إليه في حدود الإثارة وبعض خطوطه العامة فيما يأتي . إن شاء الله تعالى . حيث نحاول معالجة ثلاثة أسئلة رئيسية:

الأول: ما هي ضرورة وجود الإمامة في الرسالة الخاتمة.

الثاني: لماذا كان استمرار الإمامة في الرسالة الخاتمة في خصوص أهل البيت عليهم السلام ؟ ولمَ يوضع هذا الدوام بصيغة أوسع وأشمل من هذه الأسرة الشريفة وهم (أهل البيت)، ووضعت الإمامة والاختصاص في خصوص (آل النبي محمد صلى الله عليه وآله).

الثالث: لماذا اختصت الإمامة بخصوص الائمة الاثني عشر المعروفين من أهل البيت عليهم السلام.

وجواب كل واحد من هذه الأسئلة نحتاج فيه إلى بيان بعدين:

أحدهما: تفسير هذه الظاهرة، لأن الظواهر الإلهية والإسلامية بصورة عامة ليست ظواهر اعتباطية، أو مجرد قضايا تعبدية، وإنما هي ظواهر لابد أن يكون وراءها حكمة ومصالح تفسر هذه الظواهر.

والبعد الآخر: هو الإستدلال على ثبوت هذه الظاهرة في الإسلام وهذا الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام، وهو بحث تناوله علمائنا في مختلف العصور، عندما كانوا يتناولون عقيدة الإمامة.

وهذا التصور النظري الخاص للإستمرار، من الإمتيازات التي اختصت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام على المدارس الأخرى، لأن المدارس الاخرى تدعي أن الرسالة الاسلامية كان استمرارها بطريق أوسع، ولم يكن الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام.

هنا نحتاج . أيضاً . من الناحية النظرية أن نتبين هذا الموقع الخاص لأهل البيت عليهم السلام في قضية استمرار وادامة هذه الرسالة.

فأولاً: نحتاج بالنسبة إلى النظرية أن نتبين دور الإمامة وضرورتها في الرسالة الخاتمة من أجل ملا هذا الفراغ ببيان خصوصياته وهو فراغ ضرورة استمرار الرسالة، حيث أريد لهذه الرسالة الخاتمة أن تكون رسالة أبدية تنتهي بعمر البشرية.

وثانياً: نحتاج أن نتبين اختصاص أهل البيت عليهم السلام بهذا الدور دون غيرهم من الناس، وتفسير هذا الاختصاص، وهل أنه هو مجرد اصطفاء غيبي دون وجود تفسير له علاقة بحركة البشرية والحياة الاجتماعية، أو أن هذا الإصطفاء له علاقة بهذه الحياة البشرية والإرتباط بين الامر الاول والثاني.

وثالثاً: نحتاج أن نتبين اختصاص أهل البيت عليهم السلام بخصوص هذا العدد المحدود، وهو الائمة الاثني عشر عليهم السلام.

هذا كله في ما يتعلق بموضوع أصل النظرية، وهو الأمر الأوَل الذي سوف نتناوله في فصول ثلاثة على المستوى النظري.

الأوَل: البحث في ضرورة (الإمامة) وموقعها في الرسالة الاسلامية.

الثاني: في اختصاص (الإمامة) بخصوص (أهل البيت عليهم السلام).

الثالث: في اختصاص أهل البيت بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت.

الأهداف والأدوار

أما فيما يتعلق بالأمر الثاني وهو الأهداف والأدوار العامة لأهل البيت عليهم السلام، بعد أن نعرف أن لأهلَ البيت عليهم السلام هذا الموقع الخاص.

وفي هذا البحث سوف نلاحظ أن هناك سبعة أهداف وأدوار رئيسية وأساسية، يمكن أن نستنبطها من حديث أهل البيت عليهم السلام، عند الرجوع إلى أحاديثهم عليهم السلام عن دورهم في حياة المسلمين، وهذا البحث سوف نشرحه من خلال تسمية الأدوار، وبيان النصوص ذات العلاقة بتشخيص هذه الأدوار أو حقيقتها:

الدور الأوَل: حفظ الحياة الانسانية، لما ورد في شأن الإمامة وأهل البيت عليهم السلام بأنهم أمان لأهَل الارض.

الدور الثاني: قيادة التجربة والحكم الإسلامي وولاية الأمَر.

الدور الثالث: المرجعية الدينية والفكرية للمسلمين.

الدور الرابع: المحافظة على الشريعة الإسلامية، وبقاء هذه الرسالة محفوظة ومنزهة عن التحريف والتزوير.

الدور الخامس: المحافظة على وجود الأمة الإسلامية ووحدتها وحيويتها.

الدور السادس: بناء الجماعة الصالحة، ولذلك فإن موضوع بناء الجماعة الصالحة يكون أحد الأدوار والأهداف التي استهدفها أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية.

الدور السابع: تجسيد القدوة والأسوة في السلوك الإسلامي

الراقي، وإيجاد المثال الخارجي له.

وقد يستحق كل واحد من هذه الأدوار بحثاً أو كتاباً مستقلاً، ولكننا في هذا الاستعراض سوف نحاول التلخيص والاقتصار على القضايا الرئيسية مع الإشارة إلى أدلتها وذكر العناوين التي يمكن أن تكون مجالاً للبحث التفصيلي مع الاشارة إلى بعض المصادر التي تناولت هذه الأبحاث التفصيلية.

المواقف

وإلى جانب هذين الأمرين أو الخطين من البحث (النظرية والأدوار) يوجد بحث ثالث . أيضاً مهم، وهو استعراض (المواقف) والإنجازات المهمة الرئيسية التي اختص أو تميز بها كل واحد من هؤلاء الأئمة الاثني عشر إلى جانب المساهمة في الأدوار المشتركة وتحقيق الأهداف العامة، حيث يمكن تقسيم البحث في هذا الموضوع على عدد الأئمة أنفسهم، وبيان الأدوار من خلال المواقف الخاصة لهم والتي كان لها بطبيعة الحال أثر مهم في الوقت نفسه في تحقيق الأهداف العامة المشتركة.

وبعد هذا العرض، نأتي إلى معالجة الأسئلة الذين أثرناها في الأمر

الصفحة 17

الأول (النظرية).

الصفحة 18

الصفحة 19

نظرية الإمامة

الفصل الأول:

ضرورة الإمامة

الصفحة 20

الصفحة 21

السؤال الأول: لماذا كان من الضروري أن تستمر الرسالة الإسلامية من خلال (الامامة)، مع أن هذه الرسالة هي رسالة خاتمة، ثم لماذا لم يكن هذا الإستمرار بهذه الصورة في الرسالات السابقة، بل كان من خلال النبوات التابعة؟

أما عدم الإستمرار من خلال النبوات التابعة، فلأن الاستمرار للنبوة في الرسالات السابقة كان أمراً طبيعياً، وذلك للوصول بالرسالة والإنسانية معاً إلى مرحلة التكامل الرسالي والانساني، فكان من الضروري أن يأتي أنبياء تابعون للرسالة الالهية التي يرسل الله تعالى بها نبياً من الأنبياء أولي العزم، لأن الرسالات الالهية كانت تتعرض إلى التحريف فيها لدرجة تفقدها دورها الرسالي المطلوب من ناحية، كما أن الرسالات لم تبلغ التكامل الرسالي المفروض الذي بلغته في الرسالة الخاتمة من ناحية أخرى، والإنسانية لم تبلغ مرحلة التكامل الرسالي في ثبات الأصول والمبادىء الاساسية للرسالات الالهية في

الصفحة 22

مسيرتها من ناحية ثالثة، فنحتاج إلى هذه النبوات التابعة التي قد يندمج فيها دور النبوة والإمامة في بعض الأحيان، وقد ينفصل حسب طبيعة المرحلة والزمان، فنشاهد أنبياء دون إمامة لإبلاغ الرسالة وبيان أو كشف ما تعرضت له من تحريف أو

أوصياء دون نبوة، ليكون دورهم هو مواصلة دور النبوة السابقة المحدود.

أما في الرسالة الخاتمة وبعد فوض تكاملها الرسالي والإنساني معاً، سواء على مستوى النظرية أو ثبات الاصول والمبادىء الأساسية للرسالة، فنحن لسنا بحاجة إلى أنبياء تابعين، ولذا أنقطعت النبوة[1].

وأما لماذا كان هذا الإستمرار من خلال خط الإمامة في الرسالة الخاتمة؟

فقد أشرنا في حديثنا إلى أنه قد يبدو لأول وهلة أن الحاجة في الرسالة الخاتمة إلى الإستمرار والبقاء . بسبب أهميتها وجلالتها وسموها وامتيازاتها على الرسالات السابقة . أكثر من الحاجة بالنسبة

(1) عالجنا هذا الموضوع في بحثنا حول خصائص الرسالة الإسلامية (العالمية، الخاتمية، الخلود)، ولمزيد من التوضيح يمكن مراجعة البحث المذكور.

إلى الرسالات السابقة، لأنها الرسالة الأهم والأعظم، فكيف لا تحتاج إلى من يتابعها، مع أن الرسالات الأقل إحتاجت إلى مثل هذه المتابعة؟

والسبب في ذلك هو أن هذه الرسالة، وإن أصبحت من حيث مضمونها ومحتواها الرسالي رسالة خاتمة وكاملة، ولا تحتاج عندئذ إلى متابعة على مستوى (الأنبياء) لبيان أصل الرسالة وثبت الأصول، لأن النبي صلى الله عليه وآله أكملها في بلاغها وعرضها على الناس، وقد صرح القرآن الكريم بذلك: **(...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً...)**[1] إذن، فالرسالة الخاتمة من هذه الناحية لا تحتاج إلى إكمال على مستوى البلاغ والتبشير والإنذار الذي يتحمله الأنبياء عادة، لمعالجة الإنحرافات وتثبيت الأصول والأسس، نعم قد تحتاج إلى إكمال بيان بعض التفاصيل، ولكن ذلك وحده لا يحتاج إلى الإمامة ودورها الكبير في النظرية الإسلامية.

كما شاء الله سبحانه وتعالى أن تختص الرسالة الإسلامية من بين الرسالات الأخرى بضمانات ووسائل الحفظ من الضياع والتحريف

(1) المائدة:3.

المطلق في مضمونها، وذلك من خلال عدة عناصر أساسية ومهمة، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم، والمحافظة عليه من التحريف والزيادة والنقصان، ببركة قيام النبي صلى الله عليه وآله بتدوينه ووجود العدد الكبير من الصحابة الأفذاذ الصالحين وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام، الذين تمكنوا من حفظ القرآن في الصدور، وغير ذلك من الأسباب الغيبية أو المادية **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[1] ولاشك أن لوجود أهل البيت عليهم السلام دور مهم وعنصر أساس . أيضاً . في ذلك[2].

وهي بذلك لم تعد بحاجة إلى نبوات تابعة، ولكن مع ذلك كله، تبقى الرسالة الإسلامية الخاتمة بحاجة إلى وجود متابعة لها على مستويات أخرى، ومن أجل ذلك كان وجود الإمامة وإستمرار الرسالة من خلالها ضرورة لازمة.

وبصدد توضيح ذلك، أشير إلى ثلاث نقاطرئيسية، لابد من الاِهتمام بها ومتابعتها وبحثها بدقة:

---

(1) الحجر:9، عالجنا هذا الموضوع في بحث ثبوت النص القرآني من كتابنا علوم القرآن:99.

(2) أشرنا إلى هذا الدور في بحث التفسير عند أهل البيت عليهم السلام الذي نشر جانب منه في كتابنا علوم القرآن:307.

الإمامة والاِختلاف في العبادة

النقطة الاَولى: أن الانَبياء عندما يرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى عباده كانوا يقومون بمهمات ذات بعدين رئيسيين:

أحدهما: البلاغ والإنذار لهؤلاء الناس فيبيّوا الرسالة بتفاصيلها المطلوبة، وهذا ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله في الرسالة الخاتمة، وقام به الاَنبياء السابقون . أيضاً . في الرسالات الاخَرى.

ثانيهما: مواجهة ظاهرة الاِختلاف في المجتمع الانِساني والعمل على حله، لانَ الله تعالى يقول: (...فَبَعَث اَللهُ النَبيينَّ مُبشِّرِينِ وَمنذِرِيْنْ وِأنزلَ مَعَهُمْ َالكَتابَ بِالحُق ْلِيحكمَ بينِ ْالناسِّ فِيمَا ْاختلفوَا ْفيه...)[1]

وتدخل مهمة التزكية والتطهير ومهمة التعليم، كنتيجة لهاتين المهمتين الرئيسيتين.

إذن، قضية الاِختلاف هي قضية مهمة جداً يواجهها الانبَياء في عملهم وحركتهم، والاخِتلاف هنا هو أختلاف في المثل العليا التي يتخذها هؤلاء الناس للعبادة وفهمهم للحياة والكون وحركتهم

---

(1) البقرة:213.

الاجتماعية، حيث يتخذ هؤلاء الناس لهم الآلهة المصطنعة .والمثل المحدودة، أو التكوارية[1] والاَسماء المزيفة المستلهمة من القوى الموجودة في هذا الكون، أو الشهوات والاَهواء والميول، أو الطغاة والمستكبرين والمترفين، أو من تقليد الاباَء والاَجداد . يعبدونها من دون الله.

ولما كان عمر الرسول محدوداً . عادة . لايستوعب الزمان الكافي لحل هذا النوع من الاَختلاف خارجياً، بحيث يمكنّ من إزاحة جميع العوائق والموانع التي تقوم أمام الرسالة في حركتها الاجتماعية والإنسانية، تصبح الرسالة بحاجة إلى قيادة معصومة للحركة الاجتماعية وإدامة العمل لحل هذا النوع من الإختلاف، وهذه الحاجة ثابتة في كل الرسالات الالِهية، فكيف إذا كانت الرسالة رسالة خاتمة طويلة، يراد لها أن تعم الاَرض كلها، وتزيل جميع الآلهة المصطنعة، والاَمثلة التي يبتدعها الإنسان وتنتصب في وسط الطريق.

لذا كانت الحاجة قائمة لوجود القائد وهو الإنسان الكامل الذي نعبر عنه بالإمام، ليقود معركة تحرير الانِسان من كل هذه الآلهة

---

(1) إصطلاح إستخدمه الشهيد الصدر قدس سره في بحثه حول التفسير الموضوعي، عندما طرح فكرة المثل الآعلى في العبادة:184.

والقيود، وتحقيق العبادة المطلقة لله تعالى، دون غيره من الآلهة، وهو المثل الاَعلى للحق، لانَ معركة التحرير هذه تحتاج إلى شخص يتصف بالاستيعاب الكامل والرؤية الواضحة للرسالة من ناحية، والشعور العالي بالمسؤولية أمام الله تعالى في إدامة المعركة والإدارة القوية في إدارة المعركة التي تعتمد على جهاد النفس من ناحية أخرى.

وهذا السبب هو ما أشار إليه الشهيد الصدر قدس سره في حديثه حول ضرورة الإمامة بعد الرسول، وقد أعطى الإمامة مضموناً شاملاً، يتحد مع النبوة أحياناً، عندما تكون الحاجة إلى النبي والقائد معاً، ويفترق عنها أحيانا أخرى، عندما تكون الحاجة إلى القائد وحده، ولكنه على أي يرتبط بهذه المهمة الخاصة وهي قيادة المعركة، وهو ما عبر عنه الشهيد الصدر قدس سره بقيادة المعركة التي يواجهها الأنبياء في المجتمعات الإنسانية، لإزالة كل الامثلة المزيفة والآلهة المصطنعة الذي يخترعها الإنسان ويبتدعها، سواء كانت هذه الأمثلة المصطنعة والآلهة المزيفة عبارة عن طواغيت يحكمون بين الناس أو كانت شهوات وهوى يتحكم في مسيرة هؤلاء الناس، أو كانت أفكار منحرفة يختلقها الإنسان ويبتكرها، فيجعلها مثالاً له يقتدي ويهتدي به، فيتحول إلى

إله يعبده من دون الله، كما قال تعالى: (إِنْ هي إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطن...)[1] فهي معركة إزاحة هذه الآلهة المصطنعة عن طريق الهدى والصلاح والخير الذي يقوده الأنبياء[2]

وهذه المعركة عمرها أطول من عمر النبي، فإن عمر الرسول مهما طال زمانه، لا يستوعب زمان الإختلاف، لأن الله تعالى جعل قضية الإختلاف بين الناس سنة من السنن الطبيعية التي تحكم حركة التاريخ في كل الأدوار، فقضية الاختلاف، قضية قائمة لا يختلف فيها زمان عن زمان، ولا تنتهي هذه القضية إلا بنهاية حركة البشرية، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك أيضاً. في قوله تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة وحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم...)[3]

إذن، فالمعركة ضد الإختلاف تحتاج إلى من يقودها، وزمنها أطول من زمن النبي، ولو كانت هذه المعركة تنتهي بزمن النبي كان يمكن

(1) النجم:23.

(2) التفسير الموضوعي:195. 196.

(3) هود: 118 . 119.

للنبي أن ينهي المعركة ولا نحتاج إلى من يقودها من بعده، ولكنه لما كانت هذه القضية هي سنّة تحكم حركة التاريخ، فنحتاج إلى من يقود هذه المعركة، معركة إزاحة الآلهة المزيفة والمصطنعة أمام الحركة التكاملية للإنسان.

وقيادة هذه المعركة تارة تكون من قبل نبي يقوم بدور الإمام. أيضاً. كما في كثير من الأنبياء السابقين التابعين، وأخرى تكون من قبل الإمام الذي لا يتصف بعنوان النبوة لعدم الحاجة إليها، ولما كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، الكاملة، المحفوظة، ونبوة محمّد صلى الله عليه وآله لا نبوة بعدها، اقتضى أن يكون الدور للإمامة التي لا تتصف بالنبوة.

والشواهد على هذه الحقيقة عديدة وليست مجرد الآيات القرآنية التي أشرت إليها، وإن كانت تكفي هذه الآيات أن تكون شاهداً ودليلاً عليها، ولكن الواقع التاريخي شاهد. أيضاً. على هذه الحقيقة، فإن ظاهرة الاختلاف ظاهرة قائمة وثابتة في التاريخ

الإنساني . كما ذكرنا . كما أنها ظاهرة ثابتة في التاريخ الاسلامي في زمن النبي وبعده، ولا يمكن لاحَد من الناس أن ينكرها أو يخفيها، وهذه القضية ليست مجرد قضية نظرية، وإنما هي قضية ذات واقع قائم في المجتمع

الإنساني والاسلامي كله، وهذا هو ما نواجهه . أيضاً . في هذا العصر والزمان.

الإمامة والاختلاف في التأويل

النقطة الثانية: إن الرسالات الإلهية تواجه . عادة مع غض النظر عن الاختلاف الاول الذي ذكرناه في النقطة الاولى . بعد ثبوتها ورسوخ أقدامها نوعاً آخر من الاختلاف وهو الاختلاف في تفسير هذه الرسالة، وفهم مداليها وتأويلها وتجسيد المصاديق الخارجية فيها، وهذا نوع آخر من الاختلاف، أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة التي تحدث فيها عن أهل الكتاب وما اختلفوا فيه من تأويل الكتاب، منها قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)**[1]

(1) البقرة:174 ـ 176.

وقوله تعالى: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)**[1] كما أن بعض الآيات القرآنية أشارت . أيضاً . إلى كلا النوعين من الاختلاف، كما في قوله تعالى: **(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**[2]

وهذا النوع من الاختلاف هو معركة أخرى تخوضها الرسالات الإلهية . عادة . وهو غير الاختلاف الناشيء من تحريف أصل الرسالة بمعنى ضياع بعض معالمها المهمة، والذى حفظ في الرسالة الإسلامية، فهو تحريف في التطبيق والفهم، ويحتاج . أيضاً . إلى قيادة

(1) الجاثية:16ـ 17.

(2) البقرة:213.

معصومة في فهمها الكامل للرسالة وفهم مضمونها وآفاقها، وفي معرفتها لتفاصيلها التي لايمكن . عادة . للنبي أن يبينها لجميع الناس . كما تدل على ذلك شواهد كثيرة[1] . وكذلك معصومة في حرصها على الرسالة وقيمها ومُثلها ومبادئها وصبرها واستقامتها في هذا الطريق، وتحمّلها لمسؤوليتها وأعبائها.

وقد كان يتم ذلك . أيضاً . عن طريق النبوات التابعة من الرسالات الالِهية الاخَرى، أو الاوصَياء الذين كانوا يتحملون هذا الدور من الإمامة . أيضاً .وأما في الرسالة الخاتمة فقد تمحّض هذا الامرَ في دور الامامَة.

وهذا النوع من الإختلاف هو الذي يفسر لنا ما ورد في أحاديث عديدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عندما كان يتحدث مع علي عليه السلام، وغيره عن مستقبل الايام في التاريخ الإسلامي وتطورات الاَحداث فيه، حيث كان هناك معركتان إحداهما على التنزيل كان يقودها رسول الله صلى الله عليه وآله في مواجهة المشركين وأهل الكتاب، ومعركة أخرى هي معركة على

(1) ذكرنا هذه الحقيقة مع بعض شواهدها في بحثنا عن التفسير في زمن النبي (علوم القرآن) وفي بحثنا عن التفسير عند أهل البيت، وسوف نتناول هذا الموضوع مرة أخرى بصورة تفصيلية في البحث عن المرجعية الفكرية لأهل البيت عليهم السلام.

التأويل الذي كان يخبر الرسول عن دور الإمام علي عليه السلام في قيادتها، فقد روى سعيد بن المسيب، عن سعيد بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا عليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي، تقضي ديني وتنجز عدتي وتقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، يا عليّ حبك إيمان وبغضك نفاق ولقد نبأني اللطّيف الخبير أنه يخرج من صلب الحسين تسعة من الاَئمة، معصومون مطهّرون، ومنهم مهدي هذه الامةَ، الذيّ يقوم بالدينّ في آخر الزمان كما قمت به في أوله»[1]

إذن، فهذه المعركة هي قضية حقيقية قائمة في التاريخ الرسالي والتاريخ الإسلامي وقد ذكرها القرآن الكريم على مستوى تاريخ الاَنبياء . أيضاً .وأكدتها الاحَداث التي جرت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كحقيقة من الحقائق التاريخية، أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله في مستقبل الاَيام.

(1) البحار36:331، حديث 190، وقد ورد مضمون القتال على التأويل والقتال على التنزيل في عدد من النصوص التي رواها الفريقان.

الإمامة والولاية

النقطة الثالثة: إن الرسالة الخاتمة إمتازت بإمتيازات عديدة لم تشبهها الرسالات الإلهية السابقة وكان من جملة الامتيازات في الرسالة الخاتمة . كما ذكرنا سابقاً . هو أن الله تعالى شاء أن يحفظ هذه الرسالة بمضمونها الرسالي بصورة كاملة من خلال القرآن الكريم، ولذا لم تحتاج إلى النبوات التابعة، أما الرسالات السماوية الاَخرى فقد تعرضت للتحريف والضياع، لاَسباب[1]

يطول الحديث فيها

وكان أحد الإمتيازات المهمة . أيضاً . هو أنها تمكنت من أن تقيم الدولة الاسلامية (الكيان السياسي الاسلامي) في المجتمع الإنساني في عصر صاحب الرسالة وبعده.

فقد دعت الرسالات السابقة إلى إقامة الحق والعدل بين الناس وإلى تحكيم ما أنزل الله تعالى بين الناس، فقد قال القرآن الكريم في سياق الحديث عن نزول التوراة: (..وَمَن لمَّ يْحكمْ بُمآ أنزَل اَللهُ فأولئكُ همَ ُالكفرونَ)ُ ،ُوقالَ فِيُ سيَاق الحديث عن نزول

(1) لا أريد أن أتعرض هنا إلى جميع إمتيازات الرسالة الخاتمة على الرسالات السابقة، وقد أشرت إلى بعض هذه الإمتيازات في بحث (العالمية والخاتمية والخلود) في رسالة الإسلام، ولكن أريد أن أشير هنا إلى الإمتيازات التي هي محل الشاهد في بحثنا هذا.

الإنجيل: (..وَمَن لمَ يْحكمْ بُمآ أنزَل اَللهُ فأولئكُ همَ ُالظلمونَ)ُ ُ ، كِمُا قال في سياق الحديث عن نزول القرآن الكريم: (..وَمَن لمَ يْحكمْ بُمآ أنزَل اَللهُ فأولئكُ همَ ُالفسقونَ)ُ[1]

إذن، فقضية الدعوة إلى إقامة الحكم بين الناس ليست خاصة بخصوص الرسالة الإسلامية، بل أن قضية إقامة الحكم بما أنزل الله بين الناس هي قضية ترتبط بكل الرسالات الإلهية، ولكن شاء الله تعالى في حركة وتاريخ هذه الرسالات الإلهية أن يقوم الحكم بين الناس كحالة سياسية اجتماعية خارجية، نعبّر عنها بقيام الدولة الإسلامية، شاء الله تعالى أن يقوم ذلك في خصوص تاريخ الرسالة الخاتمة، دون بقية الرسالات الأخرى.

فنوح عليه السلام لم يتمكن من تحقيق قيام دولة إسلامية، ولو بمستوى الإسلام الذي جاء به نوح عليه السلام.

كما أن إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الأنبياء لم يتمكن أن يقيم هذا الكيان السياسي الإسلامي، وموسى عليه السلام شاء الله تعالى أن يقبضه إليه قبل أن يتمكن من إقامة هذا الكيان السياسي الإسلامي، بعد أن كان قد مهد

(1) المائدة:44و45و47.

له بإخراج بني إسرائيل من سلطة فرعون، وجاء بألواح التوراة، ليحقق ذلك، ولكنهم رفضوا الإستمرار في المسيرة ودخول الأرض المقدسة، لتحقيق هذه المهمة الإلهية الصعبة، فكتب الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة[1]

وكذلك الحال في النبي عيسى عليه السلام، حيث رفعه الله قبل أن يحقق هذا الهدف الإسلامي العظيم.

ولم يتمكن الحواريون من أن يقوموا بذلك . أيضاً . فولدت الرهبانية والانعزال، وانحرفت المسيحية على يد بولس، عندما تحولت إلى الحكم والسلطان والقيصرية.

وشاء الله تعالى أن يكون ذلك من امتيازات نبوة محمد صلى الله عليه وآله.

إذن، فهذا من الامتيازات الخاصة التي امتازت بها الرسالة الإسلامية[2] .

(1) وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في سورة المائدة الآيات 21 ـ 26.

(2) هذا بحث عميق وفيه الكثير من التفاصيل، وقلت انني أشير هنا إلى العناوين الكلية، ومن هذه التفاصيل تفسير ظاهرة قيام الدول التي أقامها بعض الأنبياء، كداود وسليمان عليهما السلام، وغيرهما من الأنبياء الذين أقاموا دولاً، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك، عندما يتحدث عن تفضيل ونعم الله على بني إسرائيل بقوله تعالى: (...إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا...) ، المائدة:20 ، فأن بعض هؤلاء الأنبياء أقاموا دولة، ولكن هذه الدولة التي أقاموها تختلف بحسب مضمونها وهويتها وخصوصياتها عن هذه الدولة الإسلامية التي أقامها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس بحسب سعتها ودائرة وجودها وتفاصيلها، بل بحسب الهوية والمضمون . أيضا .وهذا بحث أشرت له بصورة موجزة . أيضاً . في بحث (العالمية والخاتمة والخلود) كصفات للرسالة الإسلامية.

الصفحة 37

إذن، فعندما تكون من خصائص هذه الرسالة وجود هذه الدولة، فهذه الدولة تحتاج إلى قيادة تقودها، وهذه القيادة لابد أن تكون في منذ البداية معصومة، لتتخذ الدولة صيغتها الإسلامية الكاملة في

الصفحة 38

التطبيق المتميزة عن الصيغ الأخرى، وهذا إنما يتحقق من خلال الإمامة.

لأن مثل هذه الدولة، ومثل هذه التجربة لا يمكن أن تقاد وبصورة كاملة وصحيحة، بحيث تحقق كل الأهداف التي جاءت بها الرسالة، إلاّ بمثل هذه القيادة التي نعبرّ عنها بالإمامة.

وهنا ينفتح أمامنا باب بحث الخلافة الإلهية، فأن بحث الخلافة الذي هو من الأبحاث الكلامية المهمة التي يتناولها علماؤنا، ويستدلون فيها على تشخيص من يتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ويقوم بإدارة هذه الدولة، هذا البحث فيه بعدان:

بُعد يرتبط بالجانب العقائدي وهو إستمرار الرسالة في الإمامة وعصمة هذه الإمامة كعصمة الرسالة وهو ما نريد أن نشير إليه في هذا الحديث، وبُعد آخر يرتبط بالجانب التاريخي والسياسي والنصوص التي وردت في ذلك، والتحولات الاجتماعية والظروف السياسية التي اقترنت بهذا الموضوع، وهذا البعد له حديث آخر غير هذا الحديث[1] .

(1) سوف نتناوله بشيء من التفصيل، عندما نتحدث عن دور أئمة أهل البيت في قيادة الحكم الإسلامي.

الصفحة 39

إذن، فنحن عندما نتحدث عن موضوع الخلافة، وأن هذه الخلافة لابد أن يقوم بها الإمام المعصوم، وتكون تجسيداً واستمراراً للحكم الإلهي النبوي، عندما نتحدث عن هذا الموضوع، لا نتحدث عن أمر تاريخي ذهب مع الزمن وانتهى وقته، وإنما نتحدث عن أمر عقائدي، يرتبط بفهمنا للإسلام وللرسالة الإسلامية، ولتكامل هذه الرسالة، وهذا قضية مهمة جداً.

إذن، فالنقطة الثالثة في ضرورة الإمامة، هي ضرورة وجود قيادة معصومة للحكم الاِسلامي والكيان السياسي.

لاَن هذا الكيان السياسيي من أجل أن يكون قادراً على تطبيق الحق والعدل على البشرية بصورة كاملة ودقيقة، تتناسب مع الهدف الكبير لهذه الرسالة الاِسلامية، لابد له من وجود قائد معصوم لهذا الكيان السياسي الاِسلامي حتى يمكن تحقيق هذا الهدف الكبير، ولذلك نعتقد بظرورة الاِمامة المعصومة من أجل تحقيق هذا الهدف.

العصمة والاِمام المهدي

نحن نعتقد أنه بسبب عدم تولي الاِمامة المعصومة لقيادة الحكم الاِسلامي لتحقيق هذا الهدف العظيم في إقامة الحق والعدل الكامل،

الصفحة 40

شهد التاريخ الاِسلامي هذا القدر الكبير من الانحراف في مجال تطبيق العدل والحق، بحيث جعل الرسالة الاِسلامية كلها في موضع الشك والريب بسبب الظلم والاستبداد والطغيان الذي مارسه الحكام المسلمون في عدة قرون من الزمن، في العهود الاَموية والعباسية والعثمانية، ولولا الفترة القصيرة للقيادة المعصومة لرسول الله صلى الله عليه وآله وللاِمام علي عليه السلام التي تمكنت أن تبين الوجه الناصع الحقيقي لطبيعة الحكم الاِسلامي، لكان مواجهة هذه الشبهة واقعياً وعمليا أمراً عسيراً، ولاسيما وأن فترة الخلافة الاَولى بعد رسول الله التي كانت تتسم بالاِعتدال النسبي، شهدت الاِضطراب والتذبذب في صيغة الحكم الاِسلامي، وفي النتائج المروعة التي انتهت إليها في خلافة الخليفة الثالث، ومن هنا كانت وجود فكرة الاِمام المنتظر (عج) الذي يملاَ الاَرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلما وجوراً، فكرة مطروحة منذ البداية في الرسالة الاسلاِمية وهي مما يجمع عليها المسلمون، وذلك من أجل تحقيق هذا الهدف الكبير في الحكم والانتشار وفي الكيف والتطبيق الكامل للحكم الشرعي، وعندئذٍ تكون كل المساعي التي بذلها أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم بعيدون عن قيادة الحكم الاِسلامي والتجربة الاِسلامية، وكذلك كل المساعي

الصفحة 41

الاَخرى التي بذلها ويبذلها العلماء المجاهدون والمؤمنون في طول التاريخ الاِسلامي، كل هذه المحاولات إنما هي تمهيد لظهور هذه الدولة المباركة الكريمة التي تملاَ الاَرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلما وجوراً.

الصفحة 42

الصفحة 43

نظرية الاِمامة

الفصل الثاني:

أما جواب السؤال الثاني: وهو أنه إذا سلمنا بضرورة استمرار خط الإمامة بعد الرسالة الخاتمة، فلماذا كان خط الإمامة مستمراً في خصوص أهل البيت عليهم السلام، وهذه الاسَرة الشريفة الطيبة، هل أن القضية مجرد قضية تشريف وتكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله، فجعلت الإمامة في أهله وأسرته، أو أن هناك شيئاً أهم وأعظم وأوسع من ذلك بالنسبة لاستمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام ؟

كان يمكن أن يفترض نظرياً أن يكون الائَمة المعصومون في أسرة ووسط آخر غير هذا البيت الشريف، كما عرفنا في التاريخ الإنساني والرسالي وجود أسر وجماعات أخرى كان فيها أئمة معصومون، كما هو الحال في إسحاق وإسماعيل من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكما في الأنبياء من ذرية يعقوب الذي يسمى في القرآن الكريم بإسرائيل، فأن هؤلاء كانوا يتصفون بالعصمة . أيضاً . وكان بعضهم له دور الإمامة في حركته الرسالية، ومن ثم فلماذا كان إختصاص الامِامة في خصوص

أهل البيت عليهم السلام، فهل أن القضية . كما أشرنا . هي قضية تكريم وتشريف لرسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره الرسول الخاتم، فأراد الله تعالى أن يكرِّمه ويشرفه بذلك، ويجعل ذلك نعمة منه سبحانه وتعالى على هذا العبد الصالح الذي أفنى كل وجوده في سبيل الإسلام وفي سبيل الله وفي سبيل تكامل مسيرة الإنسان، أو أن تكون القضية تعويض إلهي عن الجهود التي بذلها في سبيل الله والحق والعدل والإنسانية، كما قد يفهم ذلك من قوله تعالى: **(...قُل لاَّ أَسَلكُمَ عُلَيهِ أَجرَاً إِلاَ الْمَوَدَةَ فَى القربىْ..)**[1] فيكون أجراً له على ذلك، وإنما اختص هذا الاَجر به دون بقية الانبَياء الذين أكد القرآن على أنهم لا يبغون أجراً على رسالتهم إلا الايمان بالله تعالى، لانَ النبي صلى الله عليه وآله قد بذل جهدا لَم يبذل مثله أحد من الانبيَاء، وقد تحمل من الآلام والمحن ما لم يتحمله أحد قبله ولا بعده... أو أن هناك شيئاً آخر غير موضوع التكريم والتشريف؟

هنا يمكن أن نشير بهذا الصدد إلى عدة نقاط . أيضا . مع قطع النظر عن الروايات التي وردت في هذا الموضوع والإستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام من خلال النصوص الشريفة التي دلت على

(1) الشورى:23.

إمامتهم[1] .

التكريم والتشريف

النقطة الاَولى: هي قضية التكريم والتشريف التي أشرنا إليها في طرح السؤال، حيث نلاحظ من خلال القرآن الكريم

ومسيرة التاريخ الرسالي لكل الرسالات الإلهية أن الله تعالى شاء بلطفه وكرمه وفضله على أنبيائه بأن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة يقومون بهذا الواجب الإلهي تكريماً لهم ونعمة منه تعالى عليهم، وكان هذا التكريم في الوقت نفسه رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء أنفسهم، تعبر عن حالة فطرية في الإنسان الكامل هي الاتجاه والرغبة إلى البقاء والاستمرار من خلال ذريته، وقد أكد هذه الحقيقة الفطرية القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة في عدة مواضع[2]

(1) هذا البحث له محله الخاص، وهو بحث كلامي عقائدي له أساليبه وأدلته وبراهينه الخاصة به ـ أيضاً ـ نتناوله في محله، وإنما نريد في هذا البحث أن نفسر هذه الظاهرة، ظاهرة تعيين الإمامة وتشخيصها في خصوص أهل البيت عليهم السلام تفسيراً ينسجم مع الأطر العامة التي جاء بها الإسلام، وأكدها القرآن الكريم، وترتبط ـ أيضاً ـ بمسيرة الإنسان وتكامله.

(2) هذا بحث قرآني واجتماعي مهم يرتبط بدراسة علاقة الإنسان بذريته، وشعوره بالبقاء والخلود من خلالها.

إذن، فهذه القضية هي قضية ترتبط بكلا الجانبين، الجانب الإلهي الخالق المنعم الكريم الجواد المتفضل على أنبيائه، المجيب لدعائهم ونداهم، وبالجانب الإنساني العبودي، المتمثل بهؤلاء الأنبياء الذين أخلصوا لله تعالى في العبودية . أيضاً . فأنه من جملة إخلاصهم وإحساسهم بالعلاقة الأكيدة مع الله تعالى، إنهم كانوا يتمنون على الله ويرجون منه ويدعونه في أن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة، يضمن لهم البقاء والاستمرار في عبوديتهم لله تعالى ودورهم ومهمتهم في الحياة الإنسانية.

فهذا إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الأنبياء، عندما خاطبه الله تعالى وابتلاه بكلمات من عنده، فجعله إماماً للناس (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...)، كان أول شيء يطرحه على الله تعالى ويرجوه منه، عندما يحمله الله تعالى هذه المسؤولية، هو أن تكون هذه الإمامة في ذريته . أيضاً . (...قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[1]

وكذلك الحال في إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يقيمان دعائم البيت (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

(1) البقرة:124.

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) هؤلاء في البداية يطلبون القبول من الله تعالى لهذا العمل العظيم، ثم يدعوانه تعالى أن يكونا مع ذريتهما من المسلمين المهتدين المنيبين إليه المقبولين لديه، (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

ثم لا يكتفون بأن تكون هذه الذرية ذرية مسلمة مهتدية مقبولة، بل تتوقى هذه الدعوة بأن يطلبوا أن تكون هذه الذرية ذرية تتحمل مسؤولية النبوة والرسالة . أيضاً . (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1]

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر ويقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام)[2] يعني كان يرى نفسه في تحمله لهذه الرسالة إن ذلك كان إستجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع القواعد في البيت.

(1) البقرة:127 ـ 129.

(2) البحار 12:92، حديث 1.

الإمامة في الذرية سنة

النقطة الثانية: إننا نلاحظ في دراستنا لتاريخ الأنبياء والمرسلين، أن هذا التكريم قد تحول إلى سنّة من السنن الواضحة في التاريخ الرسالي، وذلك عندما نرجع إلى القرآن الكريم ومفاهيمه وآياته وتصوره لحركة الرسالات الإلهية والأنبياء، ومن ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـهَآ إِبْرَهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ *وَإِسْمَـٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَـٰلَمِينَ *وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[1] فعندها نجد أنّ القرآن الكريم يتحدث عن إبراهيم عليه السلام وكيف جعل الله تعالى في ذريته النبوة، ويذكر مجموعة من أسماء الأنبياء من ذريته بدون ترتيب زماني، ثم يشير إلى أمرين يمكن أن نفهم منهما هذه السنة التاريخية:

(1) الأنعام:83 ـ 87.

أحدهما: الإنتقال بالاشارة إلى نوح عليه السلام (وَنُوحاً هدينَا مْنَ قبل) ليربط هذا التاريخ بما قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانيهما: تعميم النعمة على الآباء والذريات والاَخوان، مما يفهم منه القانون العام (وَمِنْ ءابآئهِمِ وذرّيتهمُ وَّاخونهمْ).

وهكذا ما ورد في سورة مريم، عندما تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من الاَنبياء: إبراهيم وبعض ذريته وإدريس قبل إبراهيم ثم يختم الحديث بالقانون العام (أُولئكِ الذينَّ أنعَمَ اللّهُ عليهمُ منَ النّبيين مِنَ ذرّيّةِ ءادَم وممنُ حّملنا مَعَ نوحَ ومِنَّ ذرّيةَ إبْرهيمِ واسرَئيلْ وَمِمنَ هدينا وَاجتبَينَا إذَا تتلىْ عَليْهَمَ ءايَتُ الرّحمنَ خَرّوا سْجدا وبُكيا)[1]

والشيء نفسه . أيضاً . يذكره القرآن الكريم في سورة الحديد، ولكن على نحو الاشارة، وذلك عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث جعل في ذريتهما النبوة، قال تعالى: (وَلقَدَ أرسَلنَا نَوحَا وَإبرهيمَ وَجعَلنا فىَ ذرّيتهمَا النبوةَ وَالكتَبِ فمنهمُ مُهتدَ وكثيرَ مِنهُم فسِقُونَ)[2]

---

(1) الآية:58.

(2) الآية:26.

ومولد أخرى لا يسع المجال لتفصيلها.

إذاً فهذه من السنن التي كانت تحكم مسيرة الرسالات الالهية، فلا نرى غرابة في أن هذه السنة تجري . أيضا . في هذه الرسالة الخاتمة، بل هي امتداد لسنّة إلهية، شاء الله أن يجعلها حاكمة على مسيرة الانَبياء والمرسلين منذ بداية الرسالات الالهية وإلى نهايتها.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإمامة بدأت من نوح عليه السلام . كما يذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي قدس سره وشهيدنا الصدر قدس سره . فقد نرى أن التأكيد في القرآن الكريم على نوح وإبراهيم عليهما السلام، وجعل النبوة في ذريتهما، إنما هو إشارة إلى قضية الإمامة واستمرارها في ذرية هذين النبيّين، ولا سيما أن النبي صلى الله عليه وآله هو . أيضا . من ذرية إبراهيم عليه السلام، حيث أنه ينتمي إلى إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ونبينا هو دعوة إبراهيم عليه السلام، وبذلك تصبح القضية مرتبطة تماماً بهذه السلسلة المباركة للاَنبياء من ناحية، وهذه السنة التي كتبها الله تعالى في الرسالات الإلهية، وهي سنة التكريم والتشريف لهم، والنعمة الإلهية عليهم.

النقطة الثالثة: التي يمكن أن يشار إليها بهذا الصدد وهي أن قضية التشخيص في أهل البيت عليهم السلام، ليست مجرد عملية تكريم

حكمة الإمامة في الذرية

وتشريف وفضل ونعمة أنعم بها الله تعالى على أنبياءه، بل أن وراء ذلك أموراً أخرى، يمكن أن نلاحظها عندما نريد أن

ندرس هذه الظاهرة؟وهي أمور ذات أبعاد: غيبية، وتاريخية، ورسالية، وإنسانية.

وهذه الأبعاد التي يمكن أن نلاحظها من خلال دراستنا للقرآن الكريم ومراجعتنا ومطالعتنا للرسالة الإسلامية قد تفسر النقطتين السابقتين، ببيان الحكمة في هذا التكريم الإلهي وهذا الاتجاه الفطري في الانسان الذي تحول إلى سنة في مسيرة الأنبياء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

البعد الغيبي

أما ما يتعلق بموضوع البعد الغيبي، فهنا نلاحظ أن الله تعالى خلق الإنسان بصورة وحقيقة مزه فيها على بقية المخلوقات، وجاء التعبير عن ذلك بالنفخ فيه من روح الله، قال تعالى: **(ثُمَّ سوىَّ وَنُفخَ فَيهَ من روحِه وجُعلِ لكِم السَمعَ والأبُصر والأفئدَة قَليلا مَا تَشكَرُوْنُ)**[1] فالإنسان ليس موجوداً مادياً متمحضاً في الجانب المادي فقط، وانما فيه عنصر غيبي، وهذا العنصر الغيبي امتياز، شاء

(1) السجدة:9.

الله تعالى أن يتعامل معه. أيضاً. من خلال الغيب، بمعنى أن هناك الكثير من الأسرار في حركة الانسان وحركة التاريخ الإنساني ترتبط بالغيب، ولم يشأ الله تعالى أن يكشف هذه الأسرار للانسان في هذا العالم، ولكن قد يكون لهذه الأسرار أثر في تكامل حركة الإنسان في حياته الدنيوية التي لها إرتباط. أيضاً. بالغيب في هذا العالم المشهود، وكذلك التكامل في حياته الأخروية، لأن الحياة المادية الدنيوية لهذا الانسان هي حياة محدودة، والحياة الحقيقية. كما يعبر القرآن الكريم. إنما هي الحياة الآخرة، **(وَما هذه الحْيوَة الدُنيا إلاَ لهوِ وَّلعَبْ وّانَ الدِارٌ الاخِرةَّ لهيَّ الحيوأَن لِوَ كَانوَا يعلمونَ)**[1] وهَيْ الحَيأة ألمَمْتدَة الطَويلة الأبدية الخالدة، وهذه الحياة الحقيقية هي حياة غيبية.

فهناك الكثير من الأسرار ذات العلاقة بالإنسان، وحياة هذا الانسان لم تكشف لهذا الانسان، ولها تأثير في حياته في العالم الآخرة، بل ومن خلال حركة الإنسان. أيضاً. في هذه الدنيا.

وهذا الأمر لابد أن نؤكد عليه دائماً في تفسير الكثير من الظواهر الانسانية، فانه لا يمكن أن نفسر الظواهر الانسانية بالتفسرات المادية

(1) العنكبوت:64.

فقط، لوجود الجانب الغيبي في الإنسان، ومن ثم فلابد أن نفترض وجود جانب من التفسير يرتبط بهذا الغيب.

وهذا الأمر ليس مجرد فرضية واحتمال عقلي، وإنما يمكن أن نجد له شواهد من القرآن الكريم. أيضاً. فقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب الغيبي في الإنسان وحركته التكاملية. كما ذكرنا. ومن ثم فيمكن أن نفترض في أهل البيت عليهم

السلام . كما ورد في النصوص والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام .وجود أسرار غيبية ترتبط بجعل الإمامة بأهل البيت عليهم السلام،لها تأثير في حركة الإنسان وتكامل هذه الحركة.

أما الشواهد القرآنية التي تتحدث عن إرتباط الحركة التكاملية للإنسان بالغيب، فهو ما نلاحظه في مجموعة من المؤشرات:

الأول: ما ذكرناه من أن الله تعالى خصّ الانسان من دون جميع الكائنات بهذا الوصف الخاص وهو أنه نفخ فيه من روحه.

إذن، فهذا الإنسان موجود ومخلوق يختلف عن بقية الكائنات التي لم توصف بمثل هذا الوصف، وترتبط بالله تعالى هذا الربط في جانب الخلقه.

الثاني: ما يشير إليه القرآن الكريم في مجال خلق الإنسان من أن الله تعالى عندما خلق الانسان، أخذ عليه عهودا ومواثيق في عالم

الغيب، وليس في عالم الشهود والعالم المادي، كما يبدو ذلك من القرآن الكريم، قال تعالى: **(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)**[1] يعني أن الله تعالى انتزع من ظهور هؤلاء الناس ذريات، ثم بعد ذلك أشهدهم على حقيقة من الحقائق الرئيسية في الكون والحياة وهي (الربوبية).

وهذه الشهادة، لا ندركها الآن كأفراد نعيش الحالة المادية، فلا ندرك ونتذكر هذا الجانب من الشهادة والعهد والميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم في ذرياتهم، وشهدوا واعترفوا بذلك، وأنه سوف يحاسبهم الله تعالى في يوم القيامة . أيضاً . على هذه الشهادة، لئلا يقول الإنسان في يوم القيامة إني كنت غافلاً عن ذلك، فتكون الحجة لله.

نحن الآن لاندرك ذلك بصورة مشهودة، فهو أمر غيبي في خلق الإنسان، نعم قد ندرك بفطرتنا وبوجداننا هذه الحقيقة المعبرة عن هذا الجانب الغيبي وهذا الإعتراف بالحقيقة الإلهية، عندما تكون

(1) الآعراف:172.

الفطرة سليمة، ولكن هذا المشهد الذي يشير إليه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة لا نحس به في حالتنا المادية .وإن كنا ندرك الحقيقة في وجداننا وفطرتنا، من خلال إيماننا بالله تعالى والإعتراف بالربوبيه له تعالى .وانما هو مشهد غيبي يتحدث عنه القرآن الكريم في أصل خلق الإنسان، ومن ثم فهناك عنصر غيبي يتحكم في هذا الجانب.

الثالث: والذي يمكن أن نستنبطه من القرآن الكريم . أيضا . هو حديث القرآن الكريم الواسع والكثير، الذي يمتد في عدد كبير من الآيات والمناسبات والآفاق حول (الإصطفاء) و (الاجتباء) في حركة التاريخ.

القرآن الكريم في آيات كثيرة ومنها قوله تعالى: **(إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ*ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**[1] يتحدث عن ظاهرة الإصطفاء كظاهرة غيبية، وقضية من القضايا الإلهية

الغيبية التي لا تخضع للتفسوات المادية سلرية . أيضاً . في

(1) آل عمران:33 ـ 34، وهناك آيات عديدة، يمكن أن يجدها الباحث في مادة الِاصطفاء والِاجتباء وغيرها، في المعجم المفهرس.

حركة التاريخ، اصطفى الله تعالى آدم اصطفاءاً خاصاً،واصطفى نوحاً، ثم اصطفى إبراهيم وآل إبراهيم، ثم اصطفى عمران وآل عمران، وكذلك أكد القرآن الكريم أن هذا الِاصطفاء ليس أمراً واقفاً على هذه الاسَماء وهذه الجماعات، وانما هي قضية ذات إمتداد في الذرية، ذرية بعضها من بعض، يعني حركة تاريخية تتحرك في التاريخ الِانساني، يمكن أن نسميها حركة الِاصطفاء، وكذلك قد تكون حركة في الاسَرة أو في الجماعة والامَة.

إذن، فلماذا لا يمكن أن نفترض وجود هذه الحركة وهذا العامل الغيبي في إصطفاء الله تعالى لآل محمد صلى الله عليه وآله، وهو . أيضاً . ما يشير إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[1] ويتم تأكيد ذلك . أيضاً . في آية المباهلة وغيرها.

إذن، فيمكن أن يكون هذا سرّاً من الاسَرار الالهية الغيبية التي لها دلالات معروفة . كما سوف نشير إلى بعضها . ولكن لها . أيضاً . دلالات وآثار في حركة التاريخ، وتكامل الِانسان الدنيوي لا نعرفها في فهمناالمادي المحدود لحركة التاريخ، ويكون لها . أيضاً . أبعاد في

(1) الآحزاب:33.

مستقبل حياة الِانسان الاَخروية.

البعد التاريخي

البعد الثاني: البعد التاريخي، وقد أشار الشهيد الصدر قدس سره . في ما كتبه حول خلافة الِانسان وشهادة الانَبياء . إلى هذا البعد التاريخي، إذ يذكر إننا نلاحظ في تاريخ الاَنبياء والرسالات الالِهية أن الله تعالى اختار الاوَصياء والقادة . كما يعبرّ الشهيد الصدر قدس سره . من أوُلئك الاَقربين للانَبياء من أقاربهم أو ذرياتهم، وهذا نص كلامه: (في تاريخ العمل الرباني على الاَرض نلاحظ أن الوصاية كانت تعطى غالباً لاشَخاص يرتبطون بالرسول القائد إرتباطا نَسبيا أوَ لذريته[1]

وهذه الظاهرة لم تتفق في أوصياء النبي محمد صلى الله عليه وآله فحسب، وإنما هي ظاهرة تاريخية اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل ويشير الشهيد الصدر قدس سره كشاهد على هذه الحقيقة إلى الآيات القرآنية، كقوله تعالى:

(1) الِاسلام يقود الحياة| خلافة الِانسان وشهادة الآنبياء:166 ، كما في لوط عليه السلام الذي كان يرتبط بإبراهيم، أو في يوشع الذي كان يرتبط بموسى، أو يرتبطون به وبذريته، كما هو الحال في إسحاق وإسماعيل ويعقوب وذرية يعقوب التي أشرنا إليها.

(وَلَقَدَ أَرسَلنَا نُوحًا وَإِبرٰهِيمَ وَجَعَلنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتٰبَ...)[1] وكذلك قوله تعالى: في الآيات السابقة 38 . 78 من سورة الأنعام.

إذن، فهذه ظاهرة تاريخية، ومن ثم فقد طبقت . أيضاً . على رسالة النبي صلى الله عليه وآله، بأعتبار أن الرسالة الخاتمة وإن كانت هي رسالة كاملة وبكمالها تتميز على الرسالات السابقة، ولكن هذه الرسالة الخاتمة هي في الحقيقة إمتداد لتلك الرسالات الإلهية، والنبي صلى الله عليه وآله جاء من أجل أن يصدِّق تلك الرسالات، ثم يهيمن عليها، وقد ورد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد ذلك، وأن ما تشهده هذه الرسالة الخاتمة يتطابق تماماً مع ما شهدته الرسالات السابقة حتى جاء التعبير في مقام التطبيق الكامل قوله صلى الله عليه وآله: (لتركبن سنّة من كانت قبلكم حذو النعل بالنعل...)[2]

---

(1) الحديد:26.

(2) البحار 28:8، حديث 11 ، عن تفسير القمي، وجاء هذا الحديث في كتب الفريقين إما بلفظه أو بمضمونه، مثل مجمع البيان 5:49، وكمال الدين:576 ، طبعة مكتبة الصدوق، وصحيح البخاري:باب 50 من كتاب الأنبياء، وصحيح مسلم الحديث 6 من كتاب العلم، سنن بن ماجه باب 17، من كتاب الفتن...الخ.

إذن، فإذا كانت هذه الظاهرة هي ظاهرة تاريخية في الرسالات الإلهية، وهو أن تكون الوصاية في أقرباء النبي القائد، فلماذا تختلف الرسالة الإسلامية . بعد فرض ضرورة الإمامة واستمرارها . عن هذه الظاهرة التاريخية التي هي موجودة في كل الرسالات الإلهية؟!

ولكن هذه الظاهرة التاريخية تحتاج إلى تفسير تاريخي، ولعل ذلك . والله العالم . لأحد أمرين:

الجذر التاريخي ودوره

الأمر الأول: أن الوصي والامام عندما يكون له هذا الجذر التاريخي والارتباط النسبي بالرسالة، يكون إحساسه بالانتماء إليها وشعوره بالمسؤولية تجاهها، متجذراً بدرجة عالية جداً، وذلك حينما يرى في نفسه فرعاً من شجرة طيبة أصيلة، تمتد في جذورها الرسالية عبر القرون في التاريخ الرسالي والإنساني، وتمده بالعزم والإرادة والصبر والصمود والقوة على تحمل المحن والآلام والشدائد والإنتصارات والتقدم والبركة الإلهية التي شهدتها هذه الشجرة الطيبة في تاريخها.

ويؤكد هذا التفسير عدة مؤشرات، يمكن أن نلاحظها في القرآن

الكريم:

الأول: تأكيد القرآن الكريم على الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية، مع أن الرسالة الاسلامية هي أفضل الرسالات الالهية، وهي الرسالة المهيمنة عليها . كما ذكرنا . وهي الرسالة الخاتمة، ورسولها أفضل الأنبياء على الإطلاق، ومع ذلك كله كان

القرآن الكريم يؤكد على هذا الجذر التاريخي والإنتماء للانبياء السابقين،ولاسيما إبراهيم عليه السلام الذي ينسب إليه القرآن الكريم الإسلام في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ*وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ*أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[1]

بل أن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمى الأمة الخاتمة بهذا الاسم منذ البداية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ

---

(1) البقرة: 131 ـ 133.

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)[1]

الثاني: ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2] فقد ذكرنا سابقاً أن وجود رسول الله كان بدعوة من إبراهيم عليه السلام، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر بأنه كان دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام.

الثالث: ذكر القرآن الكريم لقصص الانبياء وتأكيده أن أحد الاهداف لذلك هو تثبيت النبي، وطلب الصبر والثبات منه تأسياً بالانبياء السابقين (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...)[3]

---

(1) الحج:78.

(2) البقرة:129.

(3) الأحقاف:35.

الأمر الثاني: أن سنة الله في التاريخ تكامل الرسالات الإلهية تدريجياً،وهي تمر عبر الرسالات المتعددة التي يكمل بعضها بعضاً، كذلك الحال في تكامل الرسل والانبياء والمرسلين، فانها يمكن أن تكون . أيضاً والله العالم . سنة تمر عبر التكامل في الجذر التاريخي للحركة الوراثية للنبي والاستمرار في الذرية وأهل البيت.

وهذه السنة هي سنة قائمة في كثير من مظاهر الطبيعة مخلوقاته عزَّ وجلّ، فالشجرة الطيبة القوية المثمرة هي الشجرة ضاربة الجذور في الأرض، بخلاف الشجرة الخبيثة.

وكذلك الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة التي ضربها الله مثلاً لها، فأنها هي التي تكون لها أصول وجذور.

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ*تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

بِإِذْنِ رِبهَا ًويَضرَبَ اللهِ الامثالُ للنأَّسْ لَعلَهم يتَّذكرونَ) ً ،وْهذا بَخلَّاف الكلمة الخبيثة، فهي كالشجرة الخبيثة، قال تعالى: (وَمثلَ ُ كَلِمة خِبيثَةٍ كشَجرَة خَبيَثة ٍاجتَثت مَن فوْقُ ً الارْضِ مالَها مِن قَّرارْ) [1]

(1) إبراهيم: 24 ـ 26.

البعد الرسالي

البعد الثالث: البعد الرسالي، وما يترتب على ذلك من تحقيق مصالح الرسالة وإعداد الأفراد لمهماتها ومسؤولياتها، وتحمل أعبائها الثقيلة.

فقد عرفنا في جواب السؤال الأول أن عمر الرسول ـ عادة ـ يكون أقصر من عمر الرسالة وأعبائها ومهماتها، وهذا ما شاهدناه ـ أيضاً ـ في الرسالة الإسلامية، فقد كان عمر رسول الله صلى الله عليه وآله محدوداً بالنسبة إلى أعبائها ومهماتها، حيث توفي رسول الله بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من البعثة الشريفة، وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلها، والإنجازات العظيمة التي حققها في هذه المدة القصيرة، فقد بقيت أعباء الرسالة الإسلامية العالمية قائمة وموجودة إلى حد كبير في مجال التفهيم والتوضيح وفي مجال التطبيق والتنفيذ، حيث لم تتجاوز المساحة التي انتشر فيها الإسلام الجزيرة العربية، من حيث الحركة والقوة والسيطرة، وأن كان قد خاطب رسول الله بها الأقوام المجاورين للجزيرة، أو دخل في بعض المعارك العسكرية معهم.

بل كانت بعض الجيوب والمناطق في الجزيرة العربية نفسها لا

زالت غير مستكملة في التفاعل مع الرسالة الإسلامية، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في الحديث عمن يطلق عليهم اسم الأعراب، من أولئك الناس الذين كانوا يعيشون في البوادي ولم يتعلموا الإسلام أو يتخلقوا بأخلاقه.

أو المؤلفة قلوبهم من ضعفاء الإيمان والاعتقاد من العرب الجاهليينالذين استسلموا للواقع السياسي والاجتماعي للهيمنة الإسلامية والنصر الإلهي، فأعلنوا دخولهم في الاسلام، وان لم يبلغ الايمان قلوبهم.

أو أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام، ولكن أضمروا الكفر والعصيان والتمرد، ويشير القرآن الكريم إلى هذه النماذج في كثير من الموارد، ومنها في سورة التوبة والحجرات والمنافقين.

وأفضل شاهد على هذه الحقيقة السياسية والاجتماعية هو ما شاهده المسلمون من حركة الإرتداد بعد وفاةرسول الله مباشرة في بعض مناطق الجزيرة العربية، أو مواقف بعض الأشخاص والجماعات السلبية من أهل بيته.

وإذا كان الوضع الثقافي والسياسي في الجزيرة العربية بهذه الصورة، فكيف الحال في خارجها، ومع هذا الوضع لا يمكن أن

نفترض بأن مهمات الرسالة قد انتهت بنهاية عمر الرسول صلى الله عليه وآله، وإكمال عملية البلاغ العام.

نعم يمكن أن نقول بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أنهى مهمة التبيين وإقامة الحجة ومهمة التأسيس وإقامة القواعد الاجتماعية ومهمة إيجاد الجماعة الإنسانية التي يمكنها أن تتحمل هذه الأعباء بصورة عامة.

وعندئذٍ، فلابد من وجود الإمامة، لتحمل هذه الأعباء الثقيلة الأخرى بعده. كما ذكرنا سابقا. ولكن تحمل هذه الأعباء الثقيلة يحتاج إلى إعداد كامل يتناسب مع طبيعة وحجم هذه الأعباء الضخمة التي سوف يتحملها هؤلاء (الأئمة) بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وهنا يمكن أن نقول بأن عملية الإعداد هذه التي يراد إنجازها من أجل تحمل هذه الأعباء، إنما يمكن أن تتم في داخل البيت الرسالي بصورة أفضل وأكمل من إنجازها في خارج البيت الرسالي.

وهذا ما أشار إليه الشهيد الصدر قدس سره في قوله: (فاختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ولم يروا النور إلا في كنفه وفي إطار تربيته، وليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث، بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الإطار السليم لتربية الوصي وإعداده للقيام بدوره

الرباني.

وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار، فلا أثر لها في حساب السماء قال تعالى: **(وَإِذِ ابتَلَىٰ إِبرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ)**[1]

فالذرية عادة تكون قابلة ومهيئة للإعداد الرسالي بصورة أفضل في حركة التاريخ الإنساني[2]

(1) البقرة:124، الإسلام يقود الحياة| خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء:167.

(2) صحيح أنه قد نشاهد أحياناً في داخل البيت الرسالي أشخاصاً يشذّون عن المسيرة وعن الارتباط بالرسالة، كما يذكر القرآن الكريم بعض النماذج.

ومن هذه النماذج ابن نوح عليه السلام، عندما يذكره القرآن الكريم كنموذج لخروج ولد لرسولٍ عن أهداف الرسالة ومسيرتها.

ونموذج آخر يذكره القرآن الكريم، له بعد آخر من الخروج وهو أب إبراهيم. كما يعبّر عنه القرآن الكريم. الذي قد يكون هدف القرآن الكريم من التأكيد عليه هو تفسير موقف (أبي لهب) من النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره قريباً لرسول الله وعمه، ومع ذلك خرج على هذه الرسالة، وهو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم بالاسم من المشركين، أو أراد به بعض أقرباء الرسول الذين كانوا بمستوى الأعمام في الحالة النسبية والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله.

ونموذج ثالث يذكره القرآن الكريم هو زوج نوح ولوط، كمثل لما يمكن أن تفقه الزوجة من صاحب الرسالة، فانها وإن لم تكن من ذريته وبيته، ولكنها عادة ما تكون تحت تأثير عمله.

الإعداد والواقع التاريخي

وهذه الفكرة إذا أردنا أن ننظر إليها من خلال الواقع التاريخي الذي عاشته الرسالة الإسلامية، نراها . أيضاً . فكرة متطابقة تماماً مع هذا الواقع التاريخي، حيث نرى أن الوصي الذي كان هو الإمام علي عليه السلام قد احتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو طفل صغير، حيث تذكر بعض النصوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد تكفله بالتربية قبل البعثة، من خلال التخفيف من مسؤوليات الإنفاق . أو المسؤوليات الاقتصادية إذا صح التعبير . عن أبي طالب.

وبدأ الرسول صلى الله عليه وآله في هذه المرحلة بتربية علي عليه السلام، وبذلك . أيضاً . يجمع المسلمون . تقريباً . أن علياً عليه السلام كان أول من أسلم، وأنه لم يعرف في حياته عبادة الأصنام أو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر يجمع عليه المسلمون، ولذلك عندما يذكر اسمه جمهور المسلمين، يخصونه بدعاء (كرّم الله وجهه)، وهم بذلك يشيرون إلى هذه الخصوصية لعلي عليه السلام، وهذه الخصوصية إنما كانت . أيضاً .

بحسب النظر إلى الظروف التاريخية ومن هذه الزاوية، بسبب إعداد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام.

طبعاً، العنصر الغيبي، في الإصطفاء والإعداد . كما ذكرنا . قائم في نفسه مع العناصر الاخرى، ولكن من هذه الزاوية وهذا الجانب نرى . أيضاً . هذه الحقيقة قائمة.

مضافاً إلى ذلك، ما تشير إليه النصوص التاريخية وتؤكده روايات بعض الأشخاص . حتى ممن لم يكن يميل إلى علي عليه السلام من الناحية الروحية والنفسية . من إعداد رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام علمياً ومعنوياً، فيما كان يسلكه في ليله ونهاره، لأن علياً عليه السلام كان قريباً من رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث كان يأخذ منه العلم والاخلاق في كل مناسبة، بل في كل وقت.

والكلمة معروفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن عليّ عليه السلام بهذا الشأن، أما عن النبي، فهي عندما قال: (أنا مدينة العلم وعلي بابها)[1] وأما

(1) البحار28:199، حديث 6،وجاء في مستدرك الصحيحين3:126 ، عن ابن عباس ما لفظه، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وكذلك جاء في كنز العمال11:600، حديث 32890، و614، حديث 32978، و32979، و13:147، حديث 36463.

عن عليّ عليه السلام، فهي عندما قال: (علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب)[1]

هذه الحقيقة إذا أردنا أن ننظر إليها من الناحية التاريخية والمادية، نراها كانت قائمة من خلال هذا الإقتراب في دائرة عليّ

عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله، حيث تربى في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن عمه، تزوج من ابنته، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخل إلى بيت عليّ كما يدخل إلى بيته، وعليّ يدخل على رسول الله كما يدخل إلى بيته.

هذه العلاقة كانت موجودة بدرجة عالية، الأمر الذي أثار ـ أحياناً ـ غيرة بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله أو حساسية، أو أي تعبير آخر يمكن أن نقوله أو نعبر عنه في هذا المقام بصورة مناسبة[2]

---

(1) البحار26:29 ـ 30، حديث 36 و37، و33 عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، في تفسير الفخر الرازي الكبير، في ذيل تفسير قوله تعالى: **(ان الله اصطفى آدم ونوحاً...)** ، (آل عمران:33)، قال: علي (عليه السلام): علمني رسول الله(صلى الله عليه وآله) ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب، قال: فاذا كان حال المولى هكذا فكيف حال النبي(صلى الله عليه وآله)، وكذلك جاء الحديث في كنز العمال13:114، حديث 36372.

(2) لهذه البيوت الطاهرة خصوصيات، قد يعجز الإنسان عن اختيار الألفاظ المناسبة المؤدبة تجاهها، عندما يريد أن يتحدث عن بعض علاقاتها، ولكن على أي حال التاريخ يشهد في كثير من النصوص، بأن هذا الإقتراب من عليّ عليه السلام، وعناية رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام في هذا الجانب ـ جانب الإعداد والتعليم والتأهيل لتحمل هذه المسؤولية ـ كان يثير في كثير من الأحيان الحسد أو الغيرة أو غير ذلك من الإنفعالات حتى في دائرة الأشخاص القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن، فمن الناحية الواقعية والخارجية ـ أيضاً ـ نشاهد بأن التاريخ يؤكد على هذه العملية وهذه الفكرة والنظرية، وكان لها واقع خارجي في الرسالة الإسلامية من خلال إعداد عليّ عليه السلام، وقد تحدث عليّ عليه السلام شخصيا فيما روي عنه ذلك، كما تحدث أئمة أهل البيت ـ أيضاً ـ عن ذلك، وهو ما سوف نشير إليه ـ إن شاء الله ـ في بعض الأبحاث الآتية.

الإعداد والنظام العام

ومن الطبيعي ـ أيضاً ـ أن نفترض، كما نفترض في عقائدنا بأن هؤلاء الأئمة يمكن أن تتحقق لهم الإمامة دون هذا الإعداد، لإن الله تعالى قادر على كل شيء، ولا يمنعه شيء من إلهام الأشخاص والأفراد ـ لحكمة ـ بكل المعلومات دون ذلك الإعداد السابق[1]، هذا الشيء يمكن أن نفترضه، وفيه الكثير من الواقع والحقيقة بالنسبة إلى الكثير من الأفراد الذين عرفهم التاريخ

ولكن في الوقت نفسه يمكن أن نفترض أن النظام العام في الحركة الإجتماعية للإنسان يراد لها أن تسير في الكثير من الموارد، حسب النظام العام، وليس من المفروض لها دائماً أن تكون خارجة عن النظام العام، إلا بقدر الحاجة إلى هذا الإستثناء، كما هو الحال في مورد المعجزة مثلاً، وهذا يعني أنه مادام الإعداد ممكنا حسب النظام العام، فسوف يتم كذلك ويكون الإستثناء عند الحاجة والضرورة، فيتم الإعداد من خلال نظام آخر وهو النظام الغيبي.

إذن، فالطريق الطبيعي للإعداد الأفضل والتأهيل الأكمل إنما يكون في دائرة البيت القريب،

ويمكن أن نرى هذا الشيء في معالم أخرى من التاريخ، وفي مفردات وصور عديدة.

وهذه الظاهرة نراها قد تجسدت . أيضاً . في الاَسر العلمية الشريفة في تاريخ جماعة أهل البيت عليهم السلام، حيث قامت بأعمال شريفة في هذا التاريخ، وتحملت مسؤوليات كبيرة في مختلف أدوار التاريخ.

---

(1) مثل يحيى وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الآنبياء، ومثل الإمام الجواد والإمام الهادي عليهم السلام وغيرهما.

فأننا عندما ننظر إلى تاريخ ما بعد الغيبة الصغرى، بل حتى في تاريخ زمن أئمة أهل البيت عليهم السلام نلاحظ أن هناك ظاهرة كانت موجودة وقائمة في جماعة أهل البيت، وهي ظاهرة وجود الاَسر العلمية، مثلاً أسرة زرارة بن أعين، هذه الاسَرة كانت تعرف كأسرة بحيث كان جميع رجالها ثقات، أو أسرة بني فضّال هذه الاسَرة كانت . أيضا ً تعرف كأسرة، أو أسرة الاشعَريين الذين أقاموا اسسُ العلم في مدينة قم المقدسة، أمثال سعد الاَشعري وأسرته، وهكذا نلاحظ أسرة بني بابويه الذين كان لهم دور عظيم جداً كأسرة، حيث عندما نرجع إلى التاريخ نجد أن هؤلاء يمثلون عدداً كبيراً جدا ً من العلماء والفضلاء الذين كانوا يتحملون هذه المسؤوليات، وهكذا يتسلسل هذا الاَمر، ولا أريد الآن أن أطيل الحديث في ذكر الشواهد، ولكن عندما يرجع الانِسان إلى التاريخ، يجد أن هذا الامَر كان من الامور الواضحة جداً في جماعة أهل البيت عليهم السلام وفي علماء أهل البيت، بحيث كانت هناك أسر علمية تتوارث هذا العلم جيلاً بعد جيل حتى أوصلت هذا العلم إلى هذا العصر، وهذا التوارث إنما كان باعتبار هذه الخصوصية، وهي إن عملية الاِعداد والتربية التأهيل في إطار البيت الواحد تكون أسهل

مما تكون هذه القضية في خارج البيت الواحد[1]

البعد الاجتماعي

البعد الرابع: البعد الاجتماعي، وهو ما يترتب على الاِختصاص بأهل البيت من مصالح اجتماعية في التأثير على حركة الاَمة وهدايتها وارتباطها بالرسالة الاِسلامية وصاحبها، حيث أن هذه الامِامة التي تريد أن تقوم بهذه المسؤوليات الكبيرة أو الضخمة في المجتمع الاِنساني تحتاج إلى مؤهلات اجتماعية، كما تحتاج إلى المؤهلات الروحية والفكرية.

كما أن الناس في حركتهم الاجتماعية والروحية والنفسية يتأثرون بمثل هذا العامل الاِنساني، وينظرون إلى الشرف والاِصالة في

(1) في العصور المتأخرة كانت هناك أسر علمية أخرى من قبيل أسرة آل بحر العلوم، وإسرة آل كاشف الغطاء، أسرة آل شيخ راضي، وآل الجواهري، وآل الصدر، وآل شبر، وهكذا أسرة الشيخ الآنصاري ـ من بناته ـ وقبلهم الشيخ المجلسي، والوحيد البهبهاني، وغيرهم الكثير.

ولا ينبغي أن يذهب الظن إلى أن هذا الاعداد لايمكن أن يتم إلاَّ من خلال ذلك، بل قد نجد في التاريخ أشخاص متميزين في التقوى والعلم والشجاعة لم يعرفوا بأنهم من أبناء هذه الاَسر، ولكن المقصود أن الاسَرة تمثل عاملا ً طبيعيا لِلاعداد.

الاِنتماء وتكامل الاسَرة والعائلة والعشيرة والقبيلة نظرة معنوية وانسانية واجتماعية خاصة.

أما بالنسبة إلى حاجة الاِمامة إلى المؤهلات الاجتماعية، فهو من الاَمور التي يشار إليها في أبحاث علم الكلام.

من قبيل أن لا يكون في النبي أو الاِمام نقص في الاَعضاء مخلا ً بوضعه الاجتماعي، أو أن لا يكون النبي أو الامِام وضيعاً في المجتمع الاِنساني أو من عائلة وضيعة وغير شريفة، أو ممتهنا لحرفة ومهنة وضيعة، إلى غير ذلك من القضايا

التي يشار إليها في علم الكلام عند الحديث عن مواصفات الأنبياء والائمة الذين يتحملون هذه المسؤولية.

وأما بالنسبة إلى تفاعل الناس وتأثرهم بهذا العامل الاجتماعي، فهو أمر مشهود في تاريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية السابقة واللاحقة يتفاضلون فيه، ويفتخرون ويتأثرون به، لأنه عامل إنساني واقعي في الحركة التاريخية وله تأثير إيجابي في حركة الأمم وبناء المجتمع، وإن لم يكن من العوامل المؤثرة في تكامل الإنسان كفرد عند الله تعالى، أو مما يدخل في حسابه يوم القيامة، كما تشير إلى ذلك النصوص الدينية، ومنها قوله تعالى: (فَإِذَا نفخُ فِى الصور

الصفحة 77

فَلاَ أنسَابَ بيَنهمَ يْوَمئذٍ ولاَ يتسآءلون)[1] ولكنه على أي حال من العوامل المؤثرة في حركة التاريخ الإنساني والعلاقات الإنسانية[2].

خلفيات البعد الاجتماعي

ولعل مرجع هذا العامل إلى عدة قضايا، نفسية، واجتماعية، وفطرية.

اما القضية النفسية، فهي تأثر الإنسان روحياً بمعالم العز والشرف والكرامة والمنجزات العلمية والاجتماعية.

وأما القضية الاجتماعية، فهي . ما أشرنا إليه في البعد الثالث . من أن التأهيل والإعداد في بيوت الشرف والكرامة والعز والطهارة، يكون بصورة طبيعية لتحمل المسؤوليات، وإنها تنبت الشرف والكرامة والعز والطهارة بموجب السنة والقاعدة القرآنية (وَالبَلَدُ الطيبُ

(1) المؤمنون:101.

(2) تذكر بعض النصوص استثناءاً في التأثير لنسب رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم القيامة، وهو أمر يحتاج إلى بحث علمي واجتماعي لهذه النصوص، لا مجال له في حديثنا في الوقت الحاضر.

الصفحة 78

يَخْرُجُ نَباتَهَ بإذْنِ رِبِهْ والذىَ خبث لَّايخرجَ إلا نَكداَ..)[1] وهو أمر يدركه الناس من خلال رؤيتهم للتاريخ وحركة النظام العام للمجتمع الإنساني، وإن كان قد يشذ بعضهم عن هذه القاعدة.

ولذا ورد التأكيد في الإسلام، في عدة موارد على هذا الاتجاه في الزواج وفي المشورة، وفي المصاحبة والصداقة والمعاشرة.

وأما الجانب الفطري، فهو يرتبط بنظرة الإنسان الفطرية التي أكدتها الشريعة الإسلامية، وهي أن تكامل المجتمع الانساني بصورة عامة يقوم على تكامل الأسرة والعائلة والقبيلة.

وهذا بحث اجتماعي مهم له مجال آخر، ولكن بنظرة إجمالية يمكن أن نقول: أن الإسلام يرى أهمية تكامل الأسرة وارتباطها وامتدادها التاريخي في القبيلة والعشيرة، وإن ذلك هو الطريق الأفضل لتكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة، إذا

أردنا تنظيم هذا المجتمع بصورة صحيحة ومحكمة وقوية.

وإن هذا التنظيم القوي، يعتمد على عنصرين رئيسيين:

العنصر الأول: هو إحكام علاقات الأسرة التي يفترض أن يتم إحكامها، كما حث الإسلام على ذلك من خلال الزواج والعلاقات

(1) الآعراف:58.

الزوجية القائمة على أساس الحقوق المتبادلة، وتهيئة ظروف الإستقرار والسكن والمودة والرحمة، وكذلك من خلال الإرتباط بين العشائر والقبائل والأسر المختلفة، ولذلك كان من الاتجاهات في تكوين الاسرة أن يتزوج الانسان من خارج دائرة الأقربين، لإيجاد حالة التكامل الاجتماعي العام بين المفردات الرئيسية في المجتمع، وهي القبائل والاسر، وقد يكون في ذلك . أيضاً . تكامل جسمي (فسيولوجي)، كما يذكره الأطباء، ولكن فيه . أيضا ً تكامل اجتماعي من الناحية الاجتماعية، لان َ إيجاد الروابط بين القبائل والأسر يكسر الحواجز النفسية والاجتماعية الموجودة بين هذه القبائل والعشائر والاسر التي قد تكون معيقة لتكامل المجتمع وحركته عندما تصبح كبيرة وعالية، وتمنع من وحدة المجتمع وتخلق العصبية العشائرية أو الاجتماعية، وبذلك تصبح الأسرة والعشيرة أحد الأعمدة الاساسية والرئيسية في البناء القوي للمجتمع في نظرية الاسلام.

العنصر الثاني: هو قضية بناء العشيرة والقبيلة نفسها، حيث يمكن أن يقال بأن هناك إتجاه في الإسلام إلى تثبيت دعائم العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية، لا إلى تفكيكها وإضعافها، وذلك من خلال ما ورد في التأكيد على صلة الأرحام، بدرجة تصل . أحياناً . إلى

مرحلة الإلزام في الوجوب والحرمة، حسب اختلاف هذه الصلة ودرجتها، فان قطيعة الرحم حرام، ووجود أصل الصلة واجب من الواجبات الشرعية.

وكذلك . من خلال ما يشير إليه القرآن الكريم . في قضية التوارث، حيث أن التوارث في المال وضع في إطار علاقات الأرحام، لقوله تعالى: (..وأُولُوا ٱلارحَّامْ بَعضِهمَ ْأولَى ُبِبعضَ ٍفى كِتبْ اللهِ..)[1] وحتى وصل بها الإسلام إلى العلاقات البعيدة نسبياً، من قبيل علاقة الولاء، وهي عندما يدخل الانسان في ولاء أسرة من الاسر وتتقطع سلسلة الاقرباء من المواريث، فيتحول الميراث إلى الأولياء، أي إلى أولئك الذين يكونوا قد دخلوا في العشيرة عن طريق علاقة الولاء، إذن، هذا يعبّر عن إتجاه لتحكيم هذه الأواصر وربط بعضها ببعض.

وكذلك نلاحظ أن من التشريعات الموجودة في النظرية الإسلامية التي تؤكد هذا الاتجاه، قضية وقف الذرية، فأن الوقف على أقسام . كما يعرف الأخوة الأغنياء والافاضل الدارسين للفقه . وأحد أقسام الوقف هو الوقف الذي يوضع لخصوص الذرية، أي يتسلسل في

(1) الآنفال:75.

الورثة، ويتحول في طبقات الورثة، حسب شرط الواقف، أو يشركهم فيه، بكل طبقاتهم ومراتبهم، فان هذا الحكم يؤشر على أن الإسلام يتجه إلى تحكيم أواصر العشيرة والاسَرة الواحدة.

الإسلام والعلاقات العشائرية

وكذلك المفاهيم الواسعة التي طرحها القرآن الكريم في تفسير المفردات الاجتماعية وطبيعة علاقاتها، من تقسيم الإنسان إلى شعوب وقبائل قال تعالى: **(يَأيهَا الناسَّ إنا خلقَّنكمَ مَنْ َذكَر وأنثى وَجعلنكمُ شَعوبَا وَقبآئلَ لتعارفُوا إنَ أكرمَكم عِندَ اللهَ أتقكُمَ إنَّ اللهَ عَليمَ خبَير)**[1] فأن الناس وإن كانوا قد خلقوا من ذكر وأنثى، ولكنهم قد قسموا إلى شعوب وقبائل، لتقوم علاقات التعارف والتعاون بينهم، فهو تقسيم معترف به إسلامياً.

وهكذا عندما يتحدث القرآن الكريم عن موضوع (الولاء)، حيث يشير . أيضاً . إلى أن قضية الولاء في داخل العشيرة أمر طبيعي مثل ولاء الآباء والابَناء والاخِوان، فهو ولاء مقبول، ولكنه يجب أن يكون في إطار ولاء الله تعالى،ولا يصح أن يخرج عن حالة الولاء لله تعالى،

(1) الحجرات:13.

أو أن يكون في مقابل الولاء لله تعالى،وأعطى القرآن الكريم عناوين عديدة لذلك في التأكيد على هذا النوع من الولاء في آيات عديدة **(..وأُولوُا ْلارحَامْ بَعضِهمَ ْأولىُ ببْعضَ ْفى كتبَ اللهِ..)**[1] ، وكذلك التأكيد عليه في مجال الإنفاق على ذوي القربى . كالتأكيد على الإنفاق على المساكين والمحتاجين . كمورد من موارد الانفاق.

وفي الجملة نلاحظ في الكثير من معالم الشريعة الإسلامية وجود هذا الاتجاه في تحكيم أواصر العشيرة والاسَرة والقبيلة، لا على تفكيكها وإضعافها.

وهذا التحكيم . كما ذكرت . إنما يكون صحيحاً في إطار الشيء الاعَظم والاهَم من العلاقة، وهو حب الله سبحانه وتعالى، والولاء لله تعالى والإرتباط به ولا يكون خرجاً على ذلك، وفي داخل هذا الاطِار العام، كما أكد عليه قوله تعالى: **(قُلْ إنِ كانَ ءابآؤكُمُ وأبنآؤكَمْ واخُوتكمَ وأزْوجكُمُ وْعشيرْتكمُ وأمْولَ اقترفتموهُا وْتجرَة ْتخشْونَ كسَادُهُا ومَسكنِ ترضْونهَآ أحَبَ إليكَم مَنَ اللهِ ورَسولُه وجِهاد فِىَ سبيله فتربصِوا حتَىَ**

(1) الآنفال:75.

(1)

يَأْتِى اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَيَهدِى الْقَوْمَ الْفسقِيْنَ)

وبهذا نرى أن الإسلام عندما أراد بناء المجتمع، وضع أحد الأسس التي تحكم هذا البناء الاجتماعي وتجعله أكثر ترابطاً هو إحكام هذه العلاقات الأسرية بين هؤلاء الناس، وحاول في الوقت نفسه أن يعالج خطر تحول العشيرة إلى صنم يعبد من دون الله بإسلوبين:

أحدهما: تأكيد أن يكون هذا الولاء ضمن إطار الولاء لله تعالى.

والآخر: هو كسر الحواجز الاجتماعية والنفسية التي قد تنمو بين الشعوب والقبائل من خلال الحث على التعارف بينها والزواج والإتصال والمساواة في القيمة الانسانية.

وهذا الأمر في الواقع يمكن أن يذكر كأحد العناصر المهمة في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية، ولذلك نرى المجتمع ينظر إلى ابن الأسرة وإلى ابن البيت الذي يكون قريباً من صاحب البيت ينظر له ويتفاعل معه، نظرة تختلف عن نظرته إلى الاجنبي عن ذلك البيت، وهذه الحقيقة من الحقائق القائمة اجتماعياً.

ولذلك نحن ننظر إلى الزهراء عليها السلام في قربها لرسول الله صلى الله عليه وآله من خلال

---

(1) التوبة:24.

أمور كثيرة، ولكن أحد هذه الأمور التي ننظر فيها الى الزهراء عليها السلام هي هذا القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله[1]

إذن، فهذا الإنتماء يعطي الوصي والخليفة والإمام موقعاً (اجتماعياً) متميزاً في الحركة الاجتماعية، ولعل ذلك أحد العوامل والأسباب في هذا الإمتداد.

---

(1) ذكرت في محاضرة سابقة، أن الزهراء عندما أرادت أن تستثير المسلمين تجاه مظلوميتها، تحدثت في البداية عن حقوقها المغتصبة، في الخطبة المعروفة التي يتحدث عنها خطباء المنبر، ولكن في حركة أخرى دخلت الزهراء عليها السلام إلى المسلمين من هذا المدخل، أي مدخل أنها ابنة رسول الله، ويجب ان تحمى باعتبار هذه القرابة وهذه الصلة برسول الله، وعندما تحدثت مع الأنصار الذين كانوا قد دخلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في ميثاق وعهد بأن يحموا رسول الله وأهله، وقد تخلفوا عن هذه الحماية بعد وفاته، تحدثت معهم من هذا المدخل وخاطبتهم بصورة خاصة (ايها بني قيلة)، وهذا المنطلق يعبّر عن حقيقة كانت قائمة في الحالة الاجتماعية حينذاك.

نظرية الإمامة

الفصل الثالث:

الأئمة الإثنا عشر

وهنا قد يثار سؤال ثالث يرتبط بهذا الموضوع، وهو أنه إذا كان استمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام ضرورياً، فماذا عن تعين عدد الأئمة الهداة في الإثني عشر إماما فقط، دون أن يكون باب الامامة مفتوحا في أهل البيت بصورة عامة، كما يذهب إلى ذلك بعض فرق الشيعة، كالإسماعيلية والزيدية، فما هو تفسير هذه الظاهرة التي يتبناها خصوص الإمامية الإثنى عشرية، حيث أنهم يتبنون ضرورة استمرار النبوة في الإمامة، كما يتبنون استمرار ضرورة أن تكون هذه الإمامة في خصوص أهل البيت، ويتبنون في الوقت نفسه أن تكون الإمامة في أثني عشر دون التوسع في أعداد الأئمة؟

وعندما أتحدث عن الإمامة . طبعاً . أتحدث عن الامامة المعصومة التي تكون في هذا العدد الخاص، فما هو تفسير هذه الظاهرة؟

وفي هذا الموضوع يوجد جانبان من البحث:

أدلة العدد المحدود

الجانب الأول: جانب يرتبط بعلم الكلام، وهو جانب مهم جداً، يذكر في هذا المجال مجموعة من الادلة والقرائن التي تؤكد هذه الحقيقة، وسوف نتناول . إن شاء الله في القسم الثاني من البحث . هذه الأدلة والقرائن، ولكن أشير إلى بعض عناوينها:

أولاً: هناك نصوص عديدة يجمع عليها المسلمون وردت عن النبي صلى الله عليه وآله، تؤكد أن الخلفاء بعد رسول الله هم هذا العدد، أي أثنى عشر خليفة[1]، وهذه النصوص يمكن أن يستدل بها على ثبوت هذه الحقيقة.

ثانيا: أن هناك نصوص أخرى . أيضاً . وردت عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد هذه الحقيقة[2] (وأهل البيت أدرى بما فيه)، أي أن علياً عليه السلام لا يشك أحد من المسلمين في صدقه ومعرفته، وهكذا بالنسبة إلى فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، لا يشك أحد من المسلمين في صدقهم وعلمهم ومعرفتهم، فعندما ترد النصوص عن أئمة أهل

(1) راجع بحار الأنوار36:226 ـ 373، باب نصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأئمة عليهم السلام، وصحيح البخاري5:90 و92، صحيح الترمذي2:35، وغيرها من الصحاح.

(2) البحار36:373 . 414.

البيت عليهم السلام تجدهم موضع الإحترام والتصديق المطلق من قبل المسلمين، وهي تؤكد . أيضاً . هذه الحقيقة، وهذا يمكن . أيضاً . أن يشكل قرينة ودليلاً وبرهاناً على صحتها.

ثالثاً: يؤكد ذلك . أيضاً . شخصية أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تتميز هذه الشخصية بمواصفات لا نعرف لها نظيراً في التاريخ الإسلامي، في خصائصها ومواصفاتها، والحديث في هذا الموضوع . كما قلت . له مجاله الخاص، وسوف نشير إلى هذه الخصائص والمواصفات، بحيث يتبّين بصورة واضحة أن هؤلاء الأئمة الاثني عشر يتصفون بمواصفات وخصائص لا

يشبههم فيها أحد من الناس.

رابعاً: أن مواساة الجماعة الصالحة . التي ألتزمت بهذه العقيدة وآمنت بها . في خصائصها ومواصفاتها وطبيعة حركتها ونموها وتطورها المستمر في خطها البياني يؤكد . أيضاً . هذه الحقيقة، وهذا بحث يحتاج إلى شرح وتوضيح، يأتي في محله . كماقلنا . إن شاء الله.

وهذه الأمور الأربعة نؤجل البحث فيها إلى وقت آخر.

تفسير العدد المحدود

ولكن يبقى عندنا الجانب الآخر، وهو ما نريد أن نبحثه في عرض النظرية وهو تفسير هذه الظاهرة مع قطع النظر عن هذه الأدلة، ما هو تفسير أن يكون العدد محدوداً بهذه الصورة، مع أن الرسالة الاسلامية رسالة خاتمة، والامةَ الاسلامية أمة باقية حتى تقوم الساعة؟ ولماذا توضع الإمامة محصورة بعدد معيّن من الناس، ويكون هذا العدد هو أثني عشر؟

هذه القضية تحتاج إلى تفسير كبقية الظواهر الكونية والاجتماعية، بما ينسجم مع نظام الحكمة الإلهية، ومع قطع النظر عن الأدلة السابقة المشار إليها التي نستدل بها في علم الكلام، من أجل تصديق هذه الظاهرة، وبيان نسبتها إلى الإسلام والى الرسالة الإسلامية.

في تفسير هذه الظاهرة يمكن أن نشير إلى أمرين رئيسيين:

التفسير الغيبي للظاهرة

الأمر الأوَل: هو الامرَ الغيبي، فقد ذكرنا في حديثنا عن النظرية وهنا . أيضا ً نذكر ذلك، وسوف نبقى نؤكد هذا الموضوع أن الرسالة الإسلامية وكل الرسالات الالهية هي ظواهر غيبية، مرتبطة بعالم

الغيب، وحياة الإنسان الذي أرسلت إليه هذه الرسالات . أيضا ً فيها جانب غيبي، لانَ الله تعالى وان كان قد خلق الانسان من طين لازب، ومن ثم ففيه هذا العنصر المادي، فهو لحم وعظم ودم، وغير ذلك مما يتمثل فيه الجانب المادي في الإنسان، ولكن الله تعالى قد خص الإنسان بخصوصية دون غيره من المخلوقات المنظورة، وهو أنه نفخ فيه من روحه، وهذه الخصوصية لا نراها في أي موجود آخر يتحدث عنه القرآن الكريم، وقد تكون موجوده في مخلوقات عالم الغيب التي لا نعرفها، وهي خارج النظام الكوني المشهود.

كما أن حياة الإنسان ليست مختصة بهذه الحياة المادية وهي الحياة الدنيا، وانما الحياة الحقيقة لهذا الانسان الدائمة الابدَية المستمرة هي الحياة الآخرة وهي حياة غيبية.

ثم أن هذه الحياة الدنيوية فيها جانب غيبي في مستقبل زمانها وتاريخها، وهو ما تشير إليه بعض الآيات والروايات العديدة

عن أهل البيت، من (الرجعة) التي قد تمثل دورة ومرحلة جديدة للحياة الإنسانية، تعبر عن الكمال فيها[1]

(1) الرجعة فكرة ورد تأكيدها في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى حد التواتر أو التظافر، وأشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: **(قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)** غافر:11 ، ويوجد فيها تفاصيل لا تبلغ حد القطع واليقين، ولا مجال لبحثها في هذا العرض، ولعلنا نوفق لذلك في كتاب آخر لهذه الموسوعة، نتناول فيه عدد من القضايا والأفكار.

إذن، فالرسالة رسالة غيبية، والإنسان نفسه فيه جانب غيبي، وحياة الإنسان . أيضاً . فيها جانب أعظم وأهم وهو الجانب الغيبي، فعنصر الغيب لابد أن ننظر إليه دائماً عندما نريد أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بالإنسان وحركته، ولا يمكن أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بحركة الإنسان بالتفسيرات المادية المحضة، أو المدركة والمشهودة وحدها، وإنما يمكن أن يكون وراء الكثير من الظواهر القائمة في حياة الإنسان أسباب وعناصر غيبية، لا يمكن للإنسان أن يعرف كل أبعادها وكل خصوصياتها.

وفي هذه الظاهرة يمكن أن نفترض وجود العنصر الغيبي . أيضاً . لأن الله سبحانه وتعالى يصطفي من عباده من يشاء وله في أولياءه أحكام خاصة، ذات علاقة بهؤلاء الأنبياء، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة آيات.

كما أن هذا الأمر ليس أمراً غريباً في تاريخ الرسالات الالهية، فمثلاً

نلاحظ أن الأنبياء أولي العزم كانوا خمسة، وقد يطرح هذا السؤال: لماذا لم يكونوا ستة أو سبعة أو عشرة، أي لماذا كان إختصاص النبوة بهذه الدرجة العالية خاصة بهذا العدد من الأنبياء المعيّن، فنحن نعرف من خلال حركة النبوات أن الانبياء أولي العزم الذين أشار إليهم القرآن الكريم هم خمسة (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: **(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)**[1] ونرى أن هذه ظاهرة في النبوات أشار إليها القرآن الكريم، قد لا نعرف لها تفسيراً محدداً إلا التفسير الغيبي في رؤية حركة التاريخ الرسالي.

وهكذا نلاحظ ذلك في الكثير من الظواهر التي نراها في الإسلام من قبيل اختصاص العبادات بهذه العبادات الخاصة، ولم تكن هناك عبادات أخرى، واختصاص الصلوات اليومية الواجبة بالصلوات الخمسة، واختصاص هذه الصلوات الخمسة بالركعات السبعة عشر، إلى غير ذلك مما نراه من اختصاصات في الأعداد، الذي يمكن أن يكون له تأثير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولكنه تأثير في

(1) الأحزاب:7.

الغيب غير المنظور والمعروف لنا بصورة كاملة، كما أن ظاهرة وجود الأعداد المعيّنة الخاصة في الاصطفاء ليست ظاهرة مختصة بهذه القضية وفي هذه الأمة حتى يقال أن هذه ظاهرة غريبة، وإنما توجد ظواهر أخرى مماثلة لها في الأمم

السابقة.

ومن هذه الظواهر التي تقرب هذا المعنى، ظاهرة النقباء الإثني عشر في بني إسرائيل، والذين يشير إليهم القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: (وَلَقَدَ أَخَذَ اللهُ ميثَاقَ بنَى إِسرَءِيلَ وبعثنَا مِنهُمَ اثنَىَ عَشَرَ نَقِيبًا وقَالَ اللهُ إِنىَ مَعكُمَ لئَن أَقَمتُمَ الصَّلَوةَ وَءَاتَيتُمَ الزَّكَوةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلىَ وَعَزَّرتُمُوهُم وأَقرَضتُمُ اللهَ قَرضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّاتِكُمْ وَلأُدخِلَنَّكُمَ جَنَّتٍ تجرِى مِن تَحتِهَا الانهرُ فَمَنَ كفرَ بعد ذَلِكَ منكُمْ فَقَدَ ضَلَ سَوَآءَ السَبِيلِ)[1]

وقضية النقباء الإثني عشر . أيضاً . هذه قد تكون المثال لما يجري في الأمة الإسلامية الخاتمة، حيث أشرت في حديث سابق ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله من تطابق الأحداث في الأمة الإسلامية بما يجري في الأمم السابقة حذو النعل بالنعل، كما جاء في تعبير بعض

(1) المائدة:12.

النصوص أو القذة بالقذة كما جاء في بعض آخر منها، وهي نصوص متواترة يرويها جميع المسلمين بهذا المضمون.

وقد تكون ظاهرة الإثني عشر إمام متطابقة مع تلك الظاهرة التي شهدتها أمة بني إسرائيل التي هي . أيضاً . من الأمم المصطفاة والمنتخبة والتي فضّلها الله سبحانه وتعالى في بعض أدوار التاريخ، وجعل منهم أنبياءً وملوكاً، وخصهم . أيضا . بهذه الظاهرة الأثني عشرية . إذا صح التعبير . في خصوصية بني إسرائيل، وهي نكتة أخرى يمكن أن تؤكد الجانب الغيبي، أو تضيف إليه بعداً آخر.

وكذلك يؤكد هذه الظاهرة في بعدها الغيبي، ما ورد في شأن انتخاب رسول الله صلى الله عليه وآله للنقباء الإثني عشر من الأنصار في بيعة العقبة، من قوله صلى الله عليه وآله . على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد .: (اخرجوا إليّ إثني عشر منكم، يكونوا كُفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم ولا يجدن أحدكم في نفسه أن يؤخذ غيره فانما يختار لي جبريل)[1]

وبذلك يشير هذا الحديث إلى خصوصيتين:

إحداها: ذات علاقة بالعدد المذكور من تاريخ الأنبياء، وهو عدد

(1) كنز العمال:103، برقم:465.

الحواريين الإثني عشر، الذي يؤكد . أيضاً . هذه الظاهرة، وقد ورد تأكيد هذا العدد فيهم في روايات أخرى.

ثانيها: أن هذا الاختيار هو اختيار غيبي، يرتبط بقرار إلهي يبلغه جبرائيل عليه السلام.

إذن، فهذا الجانب الغيبي يمكن أن يكون تفسيراً لهذه الظاهرة.

التفسير التاريخي للظاهرة

الأمر الثاني: الذي يمكن أن نذكره بهذا الصدد في تفسير هذه الظاهرة، هو أمر له بعد مادي، بُعد في فهم حركة التاريخ، وتفسير هذه الحركة، وذلك بأن نفترض بأن المدة (الاعتيادية) لهؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين تحدث عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله (الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام) هي بين (350 . 400) سنة، إذا كانت أعمارهم أعمار اعتيادية بالنسبة إلى الظروف التي كان يعيشها الناس في الآباء والأبناء.

وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن نقول أن هذه المدة تمثل الدورة الزمنية التي يمكن أن يتم فيها إعداد الأمة الخاتمة إعداداً كاملاً في جميع أبعادها، بحيث تصبح أمة مؤهلة لاستلام الخلافة الالهية كأمة

وجماعة، وذلك عندما تصبح أمة متكاملة اجتماعية بدرجة يكون التكامل فيها كصفة ثابتة، وتنتقل بذلك . حينئذٍ . إدارة الحياة الاجتماعية من الأشخاص المنتجبين الأصفياء الذين كانوا ينتخبون لها كأنبياء وأئمة للقيام بدور الخلافة والحكم إلى الأمة الجماعة، أي عندما تبلغ الأمة مرحلة دور الوحدة الإنسانية الكاملة في تطبيق الرسالة الالهية، ودور تجسيد إرادة المستخلف الذي هو الله الذي يؤهلها لهذه الخلافة الإلهية، بعد أن كانت البشرية قد مرت بأدوار الوحدة الفطرية والاختلاف في العبادة والاختلاف في الرسالة، ويبقى دور الإمامة فيها . عندئذٍ . دور المحافظة على هذا التكامل والشهادة والرقابة على مسيرة الأمة وإقامة الحجة على الناس، وكذلك المحافظة على العلاقة والرابطة بين السماء والأرض في حفظ النظام والحياة..إلى غير ذلك من الخصوصيات الأخرى التي أشارت إليها النصوص الشريفة[1]

(1) هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من البحث والتوضيح لخصوصياته وتفاصيله، قد نوفق لتناوله عند تناول موضوع (الرجعة)، حيث يتبين من خلال ذلك البحث تفسير عدة قضايا مهمة:

1 . حقيقة الرجعة.

منهج البحث التاريخي للإعداد

وهذا الموضوع وهو الدورة الزمنية لإعداد الأمة، وإن كان يحتاج إلى بحث تاريخي واجتماعي واسع له مجال آخر، ولكن أشير هنا إلى بعض أبعاده وخطوطه النظرية والمنهجية كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة الرسالية.

الأول: بحث نظرية الأدوار التي مرت بها البشرية في الوحدة والاختلاف وعوامل الوحدة والاختلاف فيها، ومنهج الرسالات الإلهية في معالجة هذه الأدوار، وتوضيح الهدف الرئيس لها وهو إقامة الوحدة البشرية على أساس الرسالة الالهية ودعائم الحق والعدل المطلق.

وهذا الهدف هو ما أكدته الرسالات الإلهية والقرآن الكريم وبشر به جميع الأنبياء، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وذلك في الأخبار عن قيام المهدي عليه السلام من أهل البيت الذي يحقق هذا الهدف، فيملأ الأرض

قسطاً وعدلاً، وهو ما تفوضه . أيضا ً طبيعة الرسالة الخاتمة الاسلامية، التي لابد أن تحقق في إطارها الخاص ومرحلتها الخاصة هذا الهدف الإنساني الإلهي الكبير، مع ملاحظة أن هذا الهدف لم يتحقق . كما أشرنا سابقا ً في زمن صاحب الرسالة وهو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله[1]

الأهداف الرسالية الثلاث

الثاني: أن تحقيق هذا الهدف الكبير في حركة الرسالة الإسلامية، يحتاج إلى تحقيق ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إبلاغ هذه الرسالة للناس لهدايتهم بصورة طبيعية، بحيث تقام الحجة في عملية الابلاغ على الناس، وتتحرك عملية الإبلاغ لتصل إلى البشرية كلها ولو بصورة تدريجية، ولعل هذا هو ما يعبر عنه الإسلام بقضية الظهور على الدين كله **(هُوَ الذَّى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ**

(1) وقد تناولنا جانباً مهماً من هذا البحث في كتابنا (المجتمع الإنساني في القرآن الكريم)، كما أشار إلى بعض جوانبه الشهيد الصدر قدس سره في أبحاثه الاجتماعية، ومنها (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) والسنن التاريخية في محاضرات (التفسير الموضوعي).

الْمُشْرِكُونَ)[1]

والأمر الثاني: هو فرض القوة والسلطة والهيمنة الاِسلامية على البشرية كلها تدريجياً من خلال حركة القوة والقوة لاِقامة الحق والعدل التي تواكب حركة الهداية والارشاد واقامة الحجة على الناس، لانَ فرض القوة بالسلطة لابد أن يكون بعد إقامة الحجة على الناس وإبلاغ الرسالة لهم، وهو أمر آخر مطلوب في الحركة الرسالية، كما حدث ذلك بالنسبة إلى الرسالة الاِسلامية في زمن النبي، حيث أن النبي صلى الله عليه وآله قام بأقامة الحجة على الناس أولاً، ثم بعد ذلك قام بالتحرك السياسي والعسكري من أجل فرض هيمنة الحكم الاِسلامي واقامة الحق والعدل بين الناس، وعندها تحققت الهيمنة للاِسلام على الجزيرة العربية بصورة عامة في زمانه، وإن لم تكن هذه الهيمنة . أيضاً كما أشرنا سابقاً . هيمنة كاملة، ولكنها كانت هيمنة عامة للاِسلام على الجزيرة العربية في هذه المدة المحدودة، ولعل هذه الهيمنة السياسية العامة هي المقصودة بقوله تعالى ويكون الدين كله لله .والله العالم . قال تعالى: (وَقَـٰتِلُوهُم حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[2]

(1) التوبة:33.

(2) الأنفال:39.

الأمر الثالث: المطلوب إنجازه في الرسالة الخاتمة هو تطبيق الحق العدل على الناس تطبيقاً كاملاً على مستوى الفرد والجماعة معاً، حيث يمكن أن نفترض بأن الحجة تقام على الناس وتفرض الهيمنة العامة بعد ذلك للمؤسسة السياسية التي نعبر عنها بالدولة أو الحكومة على الناس، ولكن لا يتحقق التطبيق الكامل للشريعة الاِسلامية على جميع هؤلاء الناس، كما كان ذلك الأمر في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في حدود الجزيرة العربية، فأن رسول الله صلى الله عليه وآله تمكن من فرض الهيمنة الاِسلامية كدولة وقوة يخضع لها الناس في حدود الجزيرة العربية، بعد أن أقام الحجة عليهم، ولكن الكثير من هؤلاء الناس كان يرتكب الآثام . أيضاً . ويحرف قوانين الحق والعدل التي شرعها الاِسلام، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك عند الاِشارة إلى حركة المنافقين، وإلى مجتمع الاعراب ومخالفات بعض المسلمين من المؤلفة قلوبهم، أو ضعفاء الايمان، أو ضعفاء الإرادة والالتزام، حيث كان ترتكب مثل هذه القضايا حتى في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن . أحياناً . إنكاره ومواجهته مما كان يرتكب في زمانه من هذه المخالفات، إذ لم يطبّق الحق تطبيقاً كاملاً على جميع هؤلاء الناس حتى في حدود الجزيرة العربية.

وهذا التطبيق الكامل هو الذي نعبر عنه في ثقافتنا وثقافة

المسلمين بصورة عامة بقيام دولة الحق في زمان يخرج فيه الاِمام المهدي عليه السلام فيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ويؤكد ذلك فكرة (الرجعة) التي أشرنا إليها سابقاً، حيث يفهم من بعض النصوص أنه عندما تكتمل الدورة الانسانية لاعداد الجماعة البشرية، ويتحقق هذا الهدف العظيم الذي جاءت به الرسالات الإلهية، تبدأ البشرية بدورة جديدة يتجسد فيها حضور الأنبياء والأوصياء والأولياء والائمة كلهم، ليمارسوا دورهم الطبيعي في الحياة الانسانية بصورة كاملة، وفي مجتمع إنساني متكامل، ويشهد فيه الكافرون والمنافقون النصر الإلهي الذي حققه الله تعالى لأنبيائه وأوليائه، قال تعالى: **(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)**[1]

دراسة حركة الرسالة

الثالث: القيام بدراسة تاريخية لحركة الرسالة الإسلامية، منذ زمن النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والعباسية وحتى نهاية هذه المدة المفترضة (350 . 400) عاماً، ومتابعة (المؤشرات)

(1) غافر:51.

الإيجابية والسلبية في هذه المدة التاريخية ذات العلاقة بهذا الهدف الرباني، وهو تطبيق الحق والعدل بصورة كاملة، بحيث تصبح الأمة رشيدة في هذا التطبيق ومؤهلة لهذه الخلافة الإلهية، حيث يتبين من هذه الدراسة أن هذه المدة المفترضة كانت كافية للوصول بالأمة إلى هذه الدرجة العالية من الرشد والاعداد والتهيؤ لتحمل هذه المسؤولية العظمى، لو كانت الامور جرت على ما أمر الله به، من استلام الأئمة الاثني عشر للامامة خارجيا بكل أبعادها، ومنها الحكم الاسلامي والمرجعية الفكرية والدينية الكاملة للمسلمين، واستثمار فرص الهداية والبلاغ الإلهي.

ونشير . هنا . إلى نماذج من هذه المؤشرات التي يمكن متابعتها في هذه الدراسة التاريخية:

موازنة حركة الهداية والسلطة

المؤشر الأول: مدة الثلاث والعشرين عاماً التي قضاها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الرسالة الاسلامية والتي تمكن فيها من فرض الهيمنة الإسلامية على الجزيرة العربية، ومسرة الدعوة الإسلامية فيها والانجازات التي حققها النبي صلى الله عليه وآله في هذه المدة الزمنية على

المستويات الثلاثة، إقامة الحجة، وفرض السلطة، وإقامة الحق والعدل، مقاسة بالعالم.

ويلاحظ في هذا المؤشر بصورة دقيقة مجموعة خصوصيات:

الأولى: إن قيادة الحكم كانت قيادة معصومة بكل أبعادها، وهي في الوقت نفسه كانت قيادة مؤسسة تحملت آلام محنة وبلاغ الرسالة في بدايتها وقدسية الرسول والرسالة عند انتصار الرسالة.

الثانية: السرعة الفائقة التي تمكن أن يحقق فيها رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الإنجازات الفريدة على المستويات الثلاثة السابقة:

ومن هذه الإنجازات: تأسيس مشروع الأمّة الواحدة المتعددة الأطراف والخصوصيات، من جماعات متفرقة ومتناحرة ومختلفة دينياً وثقافياً، والتي حولها إلى أمة واحدة تتمتع بمعنويات عالية، تمكنت من إدامة الزخم الرسالي، وتحمل الكثير من أعباء حمل الرسالة والجهاد من أجل فرض سيطرتها.

ومنها: تأسيس الدولة الإسلامية، المشروع التطبيقي الفريد في تاريخ الرسالات الإلهية، كما أشرنا إليه فيحديث سابق [1]

ومنها: فرض الهيمنة على الجزيرة العربية كلها، والدخول في

(1) يراجع ـ أيضاً ـ في ذلك بحثنا حول (العالمية والخاتمية والخلود) من خصائص الرسالة الإسلامية، وبحثنا حول الهجرة ومعطياتها.

فتح أبواب الهيمنة على المناطق المجاورة لإخضاعها.

ومنها: إقامة الحجة على الأمم المجاورة من خلال مخاطبته لها بالإسلام، بصورة أولية من خلال الرسائل والمبعوثين.

ومنها: إبلاغ الرسالة وإكمال بيانها للناس، من خلال تلاوة القرآن الكريم وحفظه وبيانات السنة النبوية العامة والخاصة، وإلى غير ذلك من الإنجازات.

الثالثة: المقارنة الدقيقة في البحث والإستنتاج وموازنة تحقيق الأهداف بين حركة الهداية وإقامة الحجة على الناس، وفرض الهيمنة السياسية على الجماعة، حيث نلاحظ:

أولاً: إن رسول الله كان يبذل في البداية كل الجهود من أجل الهداية بدون استخدام القوة، وكان يقدم التضحيات الغالية من أجل ذلك، ثم يبدأ بعملية استخدام القوة كعامل لإزالة الحواجز أمام حركة الهداية.

ثانياً: إن الهداية، وإن كانت تحتاج إلى تضحيات وتواجه صعوبات وفترة زمنية كبيرة نسبياً، ولكنها كانت في الوقت نفسه تمثل أحد العوامل المهمة في إيجاد تسهيلات أمام حركة فرض السيطرة السياسية، وتسليم الناس للإسلام وقبول الرسالة الإسلامية.

ولذلك كانت الفترة المكية لحركة الرسول أطول زماناً من الفترة

المدنية، والنتائج لفرض السيطرة السياسية للفترة المكية كانت محدودة جداً، ولكنها كان لها تأثير مهم في النتائج التي حققها رسول الله بعد ذلك في الفترة المدنية، من تسهيل فرض السيطرة فيها على الجزيرة العربية، ومنها مكة المكرمة نفسها.

وكذلك نلاحظ ـ في هذا المجال ـ أن الجهود الكبيرة التي بذلها الرسول في معالجة قضية أهل الكتاب، وتحمله المعاناة من أجل مخاطبتهم وإقامة الحجة عليهم، كان لها دور كبير في تحقيق نتائج الهيمنة السياسية على مناطقهم المنيعة **(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ**

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)[1]

القيادة غير المعصومة

المؤشر الثاني: هو حركة الدولة الإسلامية في مدة الخلفاء الثلاثة الذين تولوا السلطة بعد الرسول والتي تم فيها إبعاد الإمام عليّ عليه السلام من قيادة التجربة الاسلامية بصورة عامة، والدولة الاسلامية

(1) الحشر:2.

بصورة خاصة، ولكنها مع كل ذلك كانت تتصف بدرجة معينة من الالتزام الديني العام والقرب الزمني من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث كان يعبر عنها الإمام عليّ عليه السلام . أحيانا ً بما روي عنه من قوله: (والله لاسلَمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاَّ عليَّ خاصة)[1] شك، وكان يقدم فيها المشورة إلى الخلفاء ويشترك في إدارة بعض الاَمور فيها، وكان يشارك فيها أخيار الصحابة وصلحائهم وخاصتهم، أمثال سلمان الفارسي . الذي يعبر عنه الرسول صلى الله عليه وآله بسلمان المحمدي .وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن مسعود، وغيرهم كثير...

حيث تمكنت هذه الدولة في فترة ربع قرن من الزمان من أن تفرض هيمنتها على جزء كبير من العالم المتحضر في ذلك العصر (الدولة الفارسية) بكامل أجزاءها والقسط الاَعظم من (الدولة الرومانية) وقسم كبير من إفريقيا.

وحركة الهداية وإقامة الحجة في هذه الفترة الزمنية، وإن لم تكن في مستواها المطلوب، قد واكبت حركة الهيمنة والسلطة، ولكنها كانت حركة قائمة وتحضى باهتمام مناسب من الدولة، ولاسيما وأن النبي كان قد شَرَعَ فيها قبل وفاته.

(1) نهج البلاغة:خطبة 74.

ولكن هذه الحركة الرسالية (حركة إقامة الحجة) لو كانت بالمستوى المطلوب، لاَمكن أن يتحقق إنجاز أعظم على مستوى تثبيت القواعد والدعائم في هذه المنطقة، ولاَمكن فرض السيطرة الكاملة . أيضاً . على جميع أجزاء الدولة الرومانية.

ولكن بسبب التلكؤ في حركة الهداية من ناحية، وإقصاء الإمام عليّ عليه السلام عن قيادة الحكم من ناحية أخرى، بقيت الجيوش الإسلامية تواجه مقاومة داخلية وخارجية، أي في داخل الجزيرة العربية من خلال حركة الارتداد والتمرد والاخَتلاف في تفسير النصوص الإسلامية، أو من خارج الجزيرة في مناطق إيران وتركيا وإفريقيا، وغيرها من المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيوش الإسلامية، وكذلك كانت تواجه مقاومة خارجية من الدولة الرومانية في آسيا وعمقها الجغرافي في أُوربا وبعض مناطق إفريقيا.

ومن ناحية ثالثة كانت الاختلافات الداخلية التي بدأت ونمت وتجذرت في زمن الخليفة عثمان بسبب الإنحرافات في السلطة، ثم تفجرت في زمن الإمام عليّ عليه السلام عليه والامام الحسن عليه السلام من بعده بسبب تمرد معاوية على السلطة

الشرعية، كل هذه العوامل كانت وراء التلكؤ في حركة الهداية.

وهذا هو ما تنبأت به الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة حول

الخلافة والبيعة والمطالبة بحقوقها[1] وما تنبأ به سلمان الفارسي . أيضاً . في تلك المناسبة عندما كان يردد قول: (والله لو وليتموها عليًّا لاكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم).

وقد كان في النموذج الذي قدمه الإمام عليّ عليه السلام في السنوات الأربع من حكمه، بالرغم من إنشغاله بالحروب الداخلية، أفضل دليل على ما كان يمكن أن يتحقق على مستوى الخط الثالث من حركة الرسالة، وهو التطبيق الكامل للأحكام الشرعية.

مشاكل الدولة وتراجعها

المؤشر الثالث: حركة الدولة الإسلامية في عهد الامويين

(1) (...والله لو تكافّوا عن زمام نبذه رسول الله صلى الله عليه وآله إليه لاعتلقه، ولسار بهم سيراً سجحا، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفح ضفّتاه ولأصدرهم بطاناً، قد تحيّر بهم الرّيُّ غير متحلّ منه بطائل إلاّ بغمر الماء وردعة شررة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

...أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرة ريثَ ما تنتج ثمَّ احتلبوا طلاع القعب دما عبيطا، وذعافا ممقرا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غبَّ ما سنَّ الاولَونَّ، ثم طيبوا عن أنفسكم أنفسا، وطأمنوا للفتنة جأشا، وأبشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وزرعكم حصيداً فياحسرتي لكم، وأنى بكم، وقد عميت (قلوبكم) عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون.)، البحار 43:158 . 159، حديث 8.

والعباسيين، فانه بالرغم من وجود فوارق رئيسية بين العهدين لا مجال لبحثهما[1] .

فأنه بالرغم من القوة والمنعة اللتان كانتا تتمتعان بهما، ولاسيما في العهد العباسي والتطور الكبير الذي شهده في القوة المادية والتنظيم الإداري والمدني، إلا إن حركة الدولة فيهما كانت تتصف . بصورة عامة . بصفتين سلبيتين رئيسيتين:

إحداهما: أن القضية الأولى والهم الأعظم للدولة في هذين العهدين كان هو فرض السلطة السياسية وبسط الهيمنة المادية والحصول على الإمكانات والثروات على الأرض، سواء في داخل الدولة الاسلامية أو في خارجها، وهو ما نعبر عنه نظريا بالإتجاه إلى تحويل الدولة إلى دولة كسروية وقيصرية، وبذلك تخلت الدولة . لا الأمة . عن مشروعها الرسالي الأساس.

ثانيهما: الصراعات الداخلية وأولوية القضاء على الخصوم السياسيين الداخليين، سواء التقليديين منهم أو الأقربين، وممارسة عمليات القمع السياسي، حتى لو لم يكن ذا طابع عسكري مسلح، الأمر الذي أدى إلى إضعاف القوة الإسلامية، وتبديد الطاقات

(1) تناولناها في بعض محاضراتنا حول الإمام الصادق عليه السلام، وسوف نتحدث عنها ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن أدوار أئمة أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم.

والإمكانات التي كانت تملكها الامَة.

ومن الظواهر والنتائج التي تؤشر على هذه الحقيقة:

1 . ظاهرة القمع الوحشي لحركة الإصلاح . الخروج على الدولة . المبررة شرعاً في الواقع أو الظاهر والتي بدأت بنهضة الإمام الحسين عليه السلام واستمرت بصور متعددة، مثل حركة المدينة المنورة ووقعة الحرة، وحركة ابن الزبير، وحركة التوابين والمختار الثقفي، وحركة زيد بن علي وأولاده، وحركة الحسين بن علي صاحب فخ، وقبله محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن المثنى.

2 . ظاهرة التوقف، ثم تراجع الدولة الإسلامية في حركة الفتح الإسلامي على أبواب أوربا الغربية وأفريقيا الجنوبية وأسيا الوسطى والجنوبية.

3 . ظاهرة انتشار الهدى في بعض المناطق داخل الدولة الإسلامية أو المجاورة لها على أيدي المشردين والمطاردين السياسيين من أهل البيت وأبنائهم وشيعتهم، كما في بعض مناطق الغرب العربي وإفريقيا السوداء وبلاد الترك والديلم، وغيرها من البلاد.

4 . ظاهرة سيطرة القبائل والشعوب حديثة العهد على مقدرات الدولة، لأسباب التترس بها في الصراعات الداخلية.

5 . ظاهرة الحروب والغزوات ذات الطابع العدواني والمكاسب المادية في الغنائم والإماء، الامَر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الدفاع عن النفس في الشعوب المجاورة، وتنافي المشاعر القومية والطائفية.

6 . ظاهرة الإنشقاقات العنيفة في داخل السلطة الواحدة والبيت الواحد، مثل بعض الاحداث التي وقعت في زمن الامَويين والعباسيين، ومنها اقتتال المأمون والأمين ولدي هارون الرشيد.

وإلى غير ذلك من الظواهر السيئة البعيدة عن الإسلام وأهدافه وقيمه ومثله.

وبذلك يمكن أن نفهم الكثير من المواقف والإدانات التي كانت تصدر عن أهل البيت بالنسبة إلى هذه الظواهر.

مثل رفض وإدانة التعاون مع حكام الجور.

وظاهرة رفض المشاركة في الحروب والغزوات وإدانتها، مع التأكيد على وجوب المرابطة والدفاع.

وظاهرة الطعن بشرعية أموال الغنائم وتملك الإماء في هذه العمليات العدوانية.

وكذلك يمكن أن نفهم السبب في وقوف الجيوش الإسلامية المنظمة والقوية عاجزة أمام القبائل الاوربية الوحشية وغير المنظمة المستقرة في مجاهل أوربا والإكتفاء بالاستقرار في الاندلس وحدها،

ثم التراجع عنها.

وكذلك السبب في وقوفها عاجزة أمام قبائل المغول الوحشية وغير المنظمة في مجاهل آسيا، ثم التراجع أمامها، بحيث أدى إلى سقوط أكثر العالم الإسلامي بيدهم.

وكذلك السبب في تحول الدولة الإسلامية إلى يد الدولة المغولية في إيران أو العثمانية في تركيا...الخ.

الإستنتاج

إن دراسة هذه الأمور الثلاثة الرئيسية مع خصائصها وظواهرها ومؤشراتها، سوف ينتهي بنا إلى هذا التصور . الذي ذكرناه . في تفسير ظاهرة الأئمة الإثني عشر، وهو أن مدة إمامة هؤلاء الائمة بحسب تقدير الحكمة والعدل الالهي في هداية الناس، تمثل دورة زمنية مناسبة لإعداد الامة وتأهيلها للقيام بهذا الواجب الالهي، وهو الخلافة لله تعالى في الارض كأمة وجماعة، وتكون بذلك مصداقاً لقوله تعالى: (كُنتُمْ خَيرَ أُمَة أُخرِجتُ لِلنَاسِ تَأمرُونَ بِالمعرُوفُ وتَنهونَ عَنْ المنكرَ...)[1]

ولقوله تعالى: (الَّذِين إِن مكنَّهمَّ فِى الارض أَقَامُوا الصَلَوَة وءَاتوا الزكوة

(1) آل عمران:110.

وَأَمرَوا بالمعرُوفُ ونهوا عَنَ المنكرَ ولله عُقبَة الامور)[1] وبذلك يعم العدل ويقوم القسط بين الناس ويحكم الحق فيهم ويتحقق الوعد الإلهي لهم (وَعدَ الله الذينَ ءامنوا منكُم وعملوا الصلحت ليستخلفنهم فى الارض كمَا استخلف الذَّينَ من قبلهم وَليمكنَنَّ لهمَّ دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهمَّ أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا...)[2]

إن هذه الدراسة، سوف توضح أن زخم الهدى والصلاح الذي تركه رسول الله في أصحابه لو استمر بالطريقة التي شرعها الله تعالى، وبلغها رسول الله لأمته وبذل كل جهده لاقامة الحجة عليها، بحيث تحفظ فيها موازنة حركة الهداية مع حركة السلطة، كان كفيلاً بتحقيق هذا الهدف الكبير في هذه المدة الزمنية، هذا الزخم الذي رأينا أثره وفعله وتأثره في العالم المحيط بالمسلمين . بالرغم من الإنحراف الذي تعرّضت له في المسيرة في أهم موقع لها . بحيث تداعت أركان الدولة الفارسية بأكملها، وكادت أن تسقط به . أيضاً . أركان الدولة الرومانية، وهما الدولتان المتحضرتان القويتان في ذلك العصر، وتفتح فيه أبواب القبائل الوثنية المشتتة في العالم، في مدة لا تزيد على ربع

(1) الحج:41.

(2) النور:55.

قرن من الزمن، كل ذلك لتحقق، لو كانت القيادة لهذا الزخم الرسالي الإلهي قيادة ربانية مدعومة بمسيرة الهدى والصلاح

وإقامة الحجة على الناس، وتذليل النفوس والقلوب قبل تذليل الأجساد والقوى المادية؟!

إن تنسيق حركة الهدى مع حركة الهيمنة وتقدمها على حركة القوة والسلطة، قد يؤجل بسط الهيمنة المادية بعض الوقت، ولكنه سوف يفوض تصاعداً حتمياً مثمراً في الخط البياني لمسيرة الخطوط الثلاثة، الامرَ الذي يؤدي إلى تحقيق هذا الهدف الحتمي الإلهي العظيم (وَلَقَدَ كَتَبنَا فِى الزَبور مِّن بعد الذكرَ أن الأرضَ يرِثُهَا عِبَادىَ الصَلِحُونَ *إِنَ فى هَذا لبَلَغا لِقَومَ عَبِدِين *وما أرسلنك إلا رَحمةَ لِّلعلمِين)[1]

كما أن (عملية) بسط العدل والحق المطلق والهيمنة الكاملة لها وحل جميع معالم وصور الإختلاف بين الناس التي أشارت إليها آية سورة النور السابقة، قد تحتاج إلى وقت أطول من وقت عملية إقامة الحجة وعملية بسط الهيمنة السياسية، لأنها أكثر تعقيداً من العمليتين الأخيرتين، ولكن هذا الوقت المفترض وهذه المدة المحدودة تكفي

(1) الآنبياء:105 ـ 107.

بأذن الله . في تحقيق كل ذلك، كما تشير إليه هذه الملاحظات[1].

وعندما يتحقق هذا الهدف الكبير قد ينتهي بذلك بعض أدوار الإمامة المعصومة، بعد أن تكون الامَة قد بلغت الرشد في حركة الهداية، وأصبحت معصومة كأمة، وتمت سيطرة الإيمان والدين سياسياً حتى لا تكون فتنة ويقوم القسط بين الناس، ووضعت أوزار الخلافات والخصومات، وأصبحت العبادة لله تعالى وحده دون غيره، لايشرك بعبادته أحد من الناس، وتصبح الحجة لله البالغة على الناس، ويبدأ دور جديد للإمامة المعصومة هو دور (الرجعة).

ولكن شاء الله تعالى أن تجري الأمور بطريقة أخرى، لمزيد من الإمتحان والابتلاء والاختبار لهذه الامةَ، ولمزيد من التكامل الإنساني من خلاله مما جعل المدة أطول، فكانت الغيبة الصغرى والكبرى.

(1) لقد كانت هذه النتائج هي التي أشارت إليها الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة، وسلمان الفارسي في تعليقته ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ وبهذا الصدد تنقل طريفة تعبر عن جانب من هذه الرؤية، وهي أن أحد المستشرقين البريطانيين الذين كانوا يصطحبون القوات البريطانية في فتحها للعراق في الحرب العالمية الأولى، دخل إلى مسجد الكوفة بعد الفتح وشاهد بناءه المتواضع ومواضع الإمام علي (عليه السلام) فيه وفي الكوفة، فعلق على ذلك بما معناه (أن لمعاوية وابن ملجم ـ قاتل الإمام علي ـ فضل كبير على الآمة البريطانية، إذ لولاهما لرأيت مسجد الكوفة هذا يعج بالقبعات البريطانية المؤمنين).

(...إِنَ اللهَ بَلِغ أمرِه قَد جعلَ اللهَ لكلَ شىءٍ قدرا)[1]

(1) الطلاق:3.